رواية

سواقي الوقت

رواية

سواقي الوقت

رواية

سلوى بكر

رقم الإيداع: ٢٠٢٢/٤٥٥٣

تدمك: ٩٧٨-٩٧٧-٦٧٩٨-٦٧-٠

الطبعة الأولى: يناير ٢٠٢٢

خطوط وغلاف: د. بولا وجيه

إشراف عام: رباب الشهاوي

الفؤاد للنشر والتوزيع

برج سانت فاتيما - أمام جنينة مول - مدينة نصر

Alfouad_Publishing@hotmail.com

facebook.com/fouadpublishing

شكر خاص.. **صالون سالمينا الثقافي**

سواقي الوقت

رواية

سلوى بكر

الفؤاد للنشر والتوزيع

جاءني الإلهام ذات مرة، عندما ضقت بهم جميعاً، أقصد حسن الأول وحسن الثاني وحسن الثالث (وهؤلاء من تيقنت من وجودهم بداخلي حتى الآن فقط)، فتفتق ذهني عن استعارة عنوان لكتاب قديم، كنت قد قرأته، وأنا تلميذ صغير في المدرسة الابتدائية، وكان اسمه "في جسمك جيوش ومعارك"؛ قلت لروحي: ولم لا، المعارك الكبرى هي – في الحقيقة – داخل المرء وليست خارجه، إنها ليست المعارك الناشئة بين الجراثيم والأجسام المناعية فقط، وكما يظن كثير من الناس، بل هناك معارك أخرى يا ولد. معارك ربما كانت أخطر وأشد فتكاً وشراسة من تلك التي قرأت عنها في ذلك الكتاب القديم، فلتتأملها وتكتشفها، ولتحاول إدارتها والسيطرة عليها لو استطعت، وهكذا ومنذ ذلك الحين بت واعياً، منتبهاً إلى الحروب المزمنة التي لا تنفك ولا تنقطع بينهم؛ أي بين حسن الأول، وحسن الثاني، وحسن الثالث، تلك الحروب المريعة التي تنغص عيشتي بين حين وآخر، وتعفر روحي بأتربتها

الخانقة، والتي ما لمست فيها ذات مرة، منتصراً واحداً، أو مهزوماً أبداً، مما زاد من عذابي ونغص عليّ أيامي دائماً.

كنت أفكر في ذلك ذات مساء، وقد تغير مزاجي إثر واحدة من حروبهم اللعينة وقد اندلعت ودون سابق إنذار، فبرغم أنني ارتشفت كوبين من الشاي الكشري بتلذذ، ورأيت بينما كنت أتوجه إلى المحل هلالاً بازغاً ونجمات سماوية منتشية بنورها، إلا أن شعوراً صدئاً كابياً، ظل يداخلني، كما كان هناك إحباط معتم مسموم يزحف وئيداً حتى تمدد واكتسح روحي، وحتى نجاحي في إصلاح ترس دقيق مستعص لساعة أوملا قديمة، كانت صاحبتها قد أودعتني إياها ورجتني ببذل عظيم جهدي لرد الروح إلى زمنها الميت مرة أخرى، ذلك كله، لم يبدد شعوراً خفياً داخلني بأن اللحظة لا تطاق، وأن بئر الغاز العميقة القابعة بداخلي آخذة في الضخ على كل أعضائي وتكاد تنثرها بعيداً بانفجارها الهائل الوشيك.

لقد عدت إلى المحل مرة أخرى عند ذلك المساء بعد استراحة عصرية قصيرة قضيتها في بيتي القريب، إثر انتهاء فترة عملي الصباحية، وبعد أن ولجت من باب المحل وعلقت اليافطة الصغيرة المكتوبة بخط نسخ جميل محفور على مربع نحاسي "مفتوح"، رحت أعد لنفسي كوباً آخر من الشاي على الموقد الذي خصصته لعمل المشروبات بالجزء الثاني من المحل والمحجوب عن الجزء الأمامي منه بستارة سميكة من قماش الكريتون المزين بحملان صغيرة مهرولة. عدت بكوب الشاي وجلست إلى طاولة الشغل لأبدأ في إصلاح الساعة السويسرية القديمة لأعيد الروح إليها وأضبط زمنها المنفلت، كنت متلذذاً بالعمل والشاي، منكباً منهمكاً، متحمساً كما هي عادتي في مواجهة مشكلات الزمن وآلاته التي أولعت دوماً بفك شفرات عملها، لكن فجأة وبدون سابق إنذار تلاشى صبري، وتراجعت سكينتي، بينما راحت ألعاب النقرس الشيطانية تلهو بأطراف قدمي اليسرى كما هي العادة، وسرعان ما راودتني رغبة عارمة في ترك كل شيء والعودة إلى البيت بسرعة مرة

أخرى. ساعتها أدركت أن حرباً جديدة قد بدأت بين الفرسان الثلاثة، فها أنا أتجاهل كل تلك الساعات المعلقة على الحوائط والمنبهات المستقرة على الرفوف، وساعات اليد الصغيرة والكبيرة، ساعات الرجال وساعات النساء، الراقد بعضها في الأدراج والمطروح بعضها الآخر على الطاولة، والتي أولع دائماً بها، ومنذ الصغر حسن الأول، ولم أهتم ولم أبال بصراخها الصامت لي بأن أمد يدي إليها فأعالج عللها، وأصالح أزمنتها العاجزة السقيمة، المتنافرة والمتبعثرة بزمن واحد محتوم، بقيت فترة متردداً أشاغل حسن الثاني وألهيه بتنظيف السطوح الزجاجية لصناديق العرض والتي لم تكن في حاجة إلى مزيد من النظافة حقاً، ورحت أراقب حسن الثالث وهو يندفع كبندول ساعة نحاسية ضخمة، مرة ناحية اليسار ضارباً حسن الأول، ومرة ناحية اليمين مطيحاً بحسن الثاني، حسن الثالث لم أفهمه أبداً، فعلى الرغم من ضراوته المزمنة في الحروب الحسنية الفظيعة، وعلى الرغم من ميله إلى الانحياز عادة تجاه حسن الأول، إلا أنه ظل من وجهة نظري، تكويناً غامضاً غير

واضح المعالم بلا سمات يمكن الإمساك بها وتشخيصها؛ فهو بلا أهداف معروفة، ولا مطالب واضحة، هلامي النزعة، يسعد بالمعارك ويشارك فيها، وكأنه يتحرك وفقاً للغريزة الحيوانية الغامضة أكثر من غموض الزمن وأوقاته، الذي لم أفهمه أبداً برغم معالجتي له واشتغالي به كل يوم. تجاهلت حسن الثالث؛ فهو سيظل في رأيي دوماً، مجرد هلام هائج، هلام بلا مخالب ولا أنياب، تزعج وتضايق رجرجته دون أن تسفر عن جروح أو ندبات، ورحت أتشاغل بترتيب محتويات الرفوف راشاً على سطوحها المغبرة محلول التنظيف الأزرق داعكاً إياها بالفوطة جيداً لأزيل عنها أتربة لم تكن موجودة أصلاً، أو لم يراكمها الزمن بما يستحق النفي أو الإبعاد. لكن المعركة ظل أوارها ملعلعاً، وعبق دخانها صدري حتى تهيأ لي أن عقارب الساعات حولي تتربص بي، وأنها على وشك الخروج من أكفانها الزجاجية لتحكم حصارها حولي، وقد تحولت إلى مقصات حادة هائلة تنشد عنقي، وهكذا انتصر حسن الثاني طاغية هذا الزمان بداخلي فاستسلمت يائساً، وتركت كل شيء بيدي، هارباً إلى

خارج المحل، ضارباً عرض الحائط باللوم الذي لابد أن ألاقيه من زبائني عندما يعودون بعد ذلك ويكتشفون أن ساعتهم الأثيرة التي أودعوني إياها ما زالت في عداد الأموات، ولم يُبعث زمنها بعد. كنت حينئذ، لا أفكر إلا في تخليص روحي من هؤلاء الثلاثة الذين استباحوها، والذهاب إلى البيت للنوم والهروب من ذلك الجسد وآلامه، وكنت متعجلاً، متلهفاً على الخروج من المحل، حتى أنني لم أصمد للململة المفكات الصغيرة والعقارب الرهيفة وكل تلك العدد والتروس والبايات والمسامير الدقيقة التي لا يمكن تبين ملامحها إلا بعدسات مكبرة، وتركت كل شيء على حاله متناثراً مبعثراً بمكانه، إلى جانب ساعات مفتوحة، مبقورة الأحشاء، وكذا الساعة الأولما السويسرية التي فرغت بالفعل من إصلاحها، دون أن أدثرها بغطائها الزجاجي السميك، لم أعر اهتماماً لكل تلك الفوضى الموزعة على طاولة عملي الخشبية المغطاة بقماش الجوخ الأخضر والتي اعتدت مزاولة جراحاتي الزمنية عليها. كانت تبدو وهي على هذه الحال وكأن عائلة فئران كاملة قد غزتها وراحت

تعبث بها عليها وتلهو لبعض الوقت. توجهت إلى لوحة الإضاءة المثبتة إلى الحائط بالقرب من الباب الخارجي للمحل، وهممت بلمس الزر؛ لأعطي إشارة البدء فيتدفق الظلام، وأغلق بعد ذلك الباب الحديد للمحل وأمضي إلى حال سبيلي، لكن قبل أن يلامس أصبعي الزر، وبينما كنت أفرك على نحو لا إرادي جفنّي عيني المرهقتين لكثرة التحديق في بطن الأولما العجوز بعدسة التكبير الزجاجية، وحثها على طحن الزمن مرة أخرى ومصالحته؛ إذ بحركة أقدام وصوت همهمات خفيفة، تداهم أذني بالقرب من باب المحل الخارجي الذي كنت على وشك إغلاقه.

توقف حسن الأول وعدوّاه عن العراك قليلاً، وقد استدرت بسرعة لأرى من خلال غبشة عيني المفروكتين، رجالاً يقفون بالقرب من باب المحل، كانوا يرتدون جلابيب وعمائم ضخمة نوعاً ما، همس حسن الأول في أذني بتعقل وهدوء: "خذ حذرك، إنهم لا يمكن أن يكونوا هنا، وفي هذا الوقت المسائي بسبب الساعات". وافقته مبدئياً، مثمناً حكمته وفطنته المشهورة بين الحسون الثلاثة، ورحت

أتحرك متوجساً بضع خطوات وأنا أفكر مستفهماً سبب حضورهم، ولأحاول تبين ملامحهم على نحو أفضل بما يتيحه ضوء الشارع الساقط عليهم من عمود الإنارة القريب من باب المحل. أدركت أنهم ثلاثة رجال بصحبتهم ثلاثة من الخراف أيضاً.

ألقوا إلي بتحية المساء، ثم بادرني ذلك الذي تكاثرت تجاعيد صحراوية سميكة على جبهته ووجنتيه ورجحت أنه أكبرهم سناً وقال:

ـ هل تشتري يا عم؟ الثلاثة بألف وسبعمائة جنيه بس. لكزني حسن الأول غامزاً بعينه لي. سكنت قليلاً، ورحت أحدق في الرجل، مفكراً فيما قاله وقد باغتني، لقد تعودت أن تعبر على المحل كل يوم أشكال وألوان من الباعة الجائلين، باعة خضر وفواكه، يحملون أقفاصاً على رؤوسهم، يجرّون عربات، باعة يحملون أمشاطاً ودبابيس متنوعة وتفاهات أخرى لا حصر لها، باعة روبابيكيا وأشياء قديمة ودّعها الزمن، وحتى باعة يعرضون ساعات يد ومنبهات وقت صينية بأسعار زهيدة. كانوا يعبرون على المحل بين

الحين والحين، ويعرضون عليّ شراء بضاعتهم الغريبة، والتي عبَر بعضها البحار لينتهي به المطاف هنا أمامي في المحل؛ أما الخراف، خراف للبيع، فهذا لم أعهده أبداً، وطوال عشرين عاماً خلت، منذ توفي أبي وصار المحل مملوكاً لي ومصدر رزقي وأكل عيشي.

كان حسن الأول ما زال ينتظر رداً يليق بتحذيره الأول لي، لكن حسن الثاني دفعه بعيداً، وعلى نحو لا يخلو من وقاحة وعنف، فحاولت فك شفرات الوجوه الغريبة الغامضة، وقد تحركت متقدماً لأقف في مواجهتها، بينما يداخلني شيء من الخوف والريبة؛ إذ كانت عيونهم تنظر إلى ما بداخل المحل وتجول فيه، كبنادل ساعات عتيقة لا تكف عن الحركة أبداً، كانوا يتفحصونني بدورهم من حين إلى آخر؛ "ربما هم لصوصاً". اقترح حسن الأول برغم أنف حسن الثاني وعنفه، وأضاف بسرعة: "وربما كانوا مسلحين كذلك، ولا يتورعون عن القتل. خذ بالك، اصرخ ولا تقاومهم". بدأت أنفاسي تتلاحق، وعرق خفيف يتجمع على جبهتي وقفاي، وقد سلسلتني جملة حسن الأول الأخيرة.

اهتز صوتي بالكلمات وأنا أقول:

ـ خرفان. الساعة عدت العاشرة والدنيا ليل. لا يا جماعة شكراً.

بدوا وكأنهم لم يهتموا لما قلت، إذا ظلوا يتابعون النظر إليّ تارة، وإلى المحل تارة أخرى، دون أن ينتقلوا من مكانهم. نطق الرجل الكبير والمتحدث الرسمي باسم الجماعة مرة أخرى، صمت مواز لسكوتي الأول، ثم سدد نظرات حادة في بؤبؤ عيني مباشرة وقال:

ـ الليل يا أخي لا يحول بين البيع والشراء. ومالها الخرفان؟ خرفاننا عال العال ورب النعمة، وسعرها متهاود جداً ولحمها أطعم من اللوز المقشر؛ لأنها معلوفة علفة ممتازة بسم الله ما شاء الله عليها، ولا فيها أي عيب يشينها، بعد الشر.

كانت عيناه صفراوين صغيرتين، أشبه بعيون حيوانات حديقة الحيوان المفترسة. انقبضت قليلاً، وتراجعت خطوة إلى الخلف، والرجل لا يسقط نظره من على عيني؛ وقد أتاح ذلك الفرصة لحسن الثاني ليهتف من داخلي وقد تحفز لمعركة وشيكة الوقوع:

ـ ربنا يسهل لكم يا جماعة. بالسلامة. أنا لا يلزمني خرفان ولا غيرها. خلوني أشوف شغلي لو سمحتم.

ـ "اصبر وصلّ على النبي". قال العجوز وهو يلامس بكفه جبهته وكأنه يفكر في أمر ما، بينما واصلت رفضي قائلاً:

ـ أنا لا آكل الخرفان أبداً، وهي لا تلزمني يا عم. خلاص، خلاص.

ـ طيب أنت بلسانك قلت إنك لا تأكل الخرفان أبداً. طيب جربها مرة. جرب من عندنا، وأقسم برب الكعبة أن عمرك ما تسلاها أبداً، وعمر ما داخل جوفك من صنف اللحوم غيرها. يعني ربنا قال التجارب حرمت. ولا نزلت فيها آية. أنت خواف. وكتاب الله خواف من التجارب.

حسن الثاني لم يطق صبراً، وبدأ دمي يفور. فقلت لنفسي: "ما هذه السماجة التي تحاصرني. إصرار الرجل مذهل وبرودة دمه تزيد كآبتي. ليلة ثقيلة من أولها ويبدو أنها لن تنتهي على خير أبداً. آه لو يطب زبون على المحل الآن؛ فأتذرع بانشغالي معه، أو ينجدني منهم – ماذا لو صدق حسن الأول، وكان هؤلاء الواقفون قبالتي الآن

لصوص بالفعل؟ إن رائحتهم لا تطاق، وكأنهم قد باتوا ليلة في أحضان الخراف. الرجل يصر على البيع لي وأنا لم أذق يوماً نسيرة خروف، فقد تربيت ومُذ طفولتي على أكل لحم العجل، وأمي لم أر في حلتها لحم خروف مرة واحدة، وكانت تقول دوماً إن لحمها سمين ورائحته زفرة وهذا ما أشعر به في أنفي الآن. لكن الرجل لا يترك فرصة واحدة لي لأخبره بذلك، أويجب أن أخبره وأقدم له مبررات رفضي. هو لا يخلو من وقاحة في ألفاظه، ويريد بيعي ثلاثة خراف دفعة واحدة. لقد صرت لا آكل اللحم بأنواعه إلا فيما ندر؛ بسبب النقرس الساكن أطرافي، ولا يكف عن العبث بمفاصلي ضارباً عرض الحائط بكل تلك الآلام التي أعانيها، ثم إن الخراف من الحيوانات التي لا تعبر فكري أبداً. على عكس الحمير التي كثيراً ما أفكر فيها، وباتت تختفي شيئاً فشيئاً من المدينة، فحتى الزبالون باتوا يديرون ظهورهم لها، وتخلوا عنها لصالح اليابانيات نصف النقل. لا. فليغرب عن وجهي هؤلاء حالاً؛ فأعصابي لا تحتمل المزيد هذه الليلة أبداً، وقرفي طافح ويكفيني ما يفعله الثلاثة الذين

بداخلي. وليذهب ذلك الجلف العجوز بخرافه الثلاثة. أأشتري ثلاثة؟ ثلاثة مرة واحدة وأنا رجل موحود لا زوجة أو عيل له. يكفيني ما أنا فيه من كآبة وغم.

غمرتني موجة حزن؛ وقد تذكرت زوجتي. حسن الثاني تأملني بأسى وذكرني بمقترحه المزمن وهو أن أذهب بعيداً وأسافر إلى أي مكان لأغير حياتي وأبتعد عن المحل وشغل الساعات، فربما تبدد من صدري كل ذلك الدخان المحبوس فيه، وربما استرحت وارتاح بالي.

لم يمهلني العجوز لمزيد من الأفكار؛ إذ قال فجأة:

ـ الظاهر إنك مفلس ولا طاقة لك بشراء الخرفان وشيلة البيعة.

ـ أنا مفلس؟ امشوا كلكم من هنا، واحفظ ملافظك يا رجل يا عجوز، أنا لا أشتري الخرفان من السكك، ولا أحب البيع الطياري، ومن عالم غريبة لا سابق معرفة بيني وبينها.

كانت نبراتي غاضبة وحزينة، وكنت لا أتمنى شيئاً خلال ذلك الوقت سوى أن يذهبوا بعيداً عني في التو والحال. بدأت أستدير

لأطفئ الأضواء وأغلق الباب. لكن الرجل استمهلني مرة أخرى وقال:

ـ وأنت. ألست غريباً عنا كذلك. أليس الجميع غرباء في أرض الله هذه. يا بني الاغتراب والاقتراب عمادهما اللسان والأخذ والعطاء في الكلام وطبيعة العشرة، ونوع الرفقة، ومسار الألفاظ في المعاني. ويمكن كلمة تقرب شطوطنا البعيدة، وتجعلنا أقرب إلى بعضنا البعض من أولاد البطن الواحد، الراضعين من صدر واحد.

ثم واصل قائلاً:

ـ هل تظن فينا الظنون؟ هل تظن أن الخراف عليلة ونحن نرميها عليك لعيبها، أو لعلك قلت لروحك إننا حرامية ورأس منسر، وكبسنا عليك لننهبك. قل لي ما بدواخلك لأريحك وأستريح.

أومأ حسن الأول إلى الثالث إيماءة ذات مغزى، بعدها وبضربة سريعة أزاح الأخير حسن الثاني بعيداً ومنعه من الكلام، بينما دفعني الأول برزانته المعهودة إلى التحديق في الرجل طويلاً غير مصدق إصراره المذهل. إنه يضيّق الخناق حولي ويحاججني بكل حجة. عاد

حسن الثاني مرة أخرى وهو يهتف: "أنت متورط. وكل كلمة ستقولها لهذا الداهية الواقف أمامك ستكون شركاً منصوباً لك. اضربه وفك الحصار من فورك، لم أتمالك نفسي فزعقت: يعني البيع بالعافية يا عالم.

حسن الأول حاول تهدئتي وهو يربت عليّ.

وجدتني أقول للثلاثة بكل لطف وهدوء.

ـ خرفانكم يا إخوان عال العال وبسم الله ما شاء الله عليها. وأنتم كلكم أحسن ناس. حاشا لله أن عقلي راح هنا ولا هنا بخصوصكم. فسيماكم على وجوهكم ومستحيل أن تكونوا أي شيء رزئ. لكن يا جماعة ربنا يسهل لكم وتبيعوا لغيري، لأني مستحيل أشتري الخرفان. بالسلامة ومن غير مطرود.

صفّق حسن الأول طويلاً لكل تلك الدرر التي تفوهت بها، لكن حسن الثاني لكمه، بينما العجوز يرد على كلماتي بثقة وهدوء فاقا هدوئي:

ـ طيب، صلّ على النبي يا صاحبي. خلي الخرفان عندك. جربها

واحلف بلحمتها وحلاوتها وادفع لنا لما ربنا ييسرها معاك، وأنت بنفسك سترجع تقول عاوز غيرها.

يقول صاحبي: "هل ننتظر المزيد من الإهانات من هذا الجربوع أيها الغفل"؟ حرضني حسن الثاني فشعرت وكأنني ديك رومي لاح أمامه ستار من الأحمر القاني فجأة. كانت دقات قلبي تتسارع وأذناي تشتعلان بسخونة الدم المتدفق فيهما، فرفعت صوتي متمنياً أن يسمعني من يعبر الطريق على الرصيف المقابل للمحل وقلت:

ـ صلّ على النبي يا شيخ أنت، من قال لك إني من أكيلة الخرفان؟ والله ما دخلت بيتي مرة حتى في عيد الضحية، فأنا أفرق زكاتي فلوساً. خلاص. روحوا وخلينا نشوف شغلنا وحالنا.. بالسلامة كلكم.

جاء رد العجوز سريعاً وحاسماً هذه المرة إلى الحد الذي أخافني فعلاً؛ إذ قال:

ـ لا. وكعبة النبي الخرفان لك. ولن تكون لجنس مخلوق غيرك. ورب الليل الداخلين فيه لن نزيد في سعرها قرشاً واحداً عن ستمائة

جنيه. لكنك مفلس يا رجل. أحلف بكتاب الله إنك مفلس.
همهم الرجلان الآخران مستنكرين ما قاله، ولم يكونا قد نطقا بأي شيء قبل ذلك. كان تخميني أنهما ربما كانا ولديه أو بعضاً من أقربائه، فملامحهما شبيهة بملامحه؛ أنف ضخم على نحو واضح، وذقن رفيع مدبب. نقلت بصري إلى الخراف بسرعة، كان واحد منها بقرون طويلة ضخمة، والثاني بدا أقل حجماً برقعة داكنة على ظهره، الثالث كان هزيلاً وببطن منتفخ بعض الشيء.
"ستمائة جنيه لا شيء" همس حسن الثاني لي: "خذهم وجرب" "ثلاثة خراف مقابل مبلغ تافه، اشترِ واصرفهم بدلاً من سرقة المحل والبهدلة. اثبت لهم أن جيبك طافح بالفلوس، ورُد الإهانة".
ثم إنه دخل في معركة مع حسن الأول الذي كان ما يزال مصراً على صرفهم بهدوء دون التهور في شراء أشياء لا لزوم لها على الإطلاق.
وقعت عيني على الخراف مرة أخرى. كانت واقفة تنظر إلى لا شيء نظرات غامضة. تحيرت قليلاً، خلت أن ذا القرنين يبتسم.. أجل يبتسم.

ابتسمت بدوري، بينما كان حسن الأول مكوماً على الأرض، وحسن الثاني واقفاً يرفع علامة النصر بأصابعه.

قلت:ـ خلاص. اتفقنا بستمائة.

دخلت المحل، وفتحت الخزانة الحديدية الخضراء القديمة، التي ورثتها ضمن أثاث المحل عن أبي، وأحفظ بداخلها ساعات الزبائن الثمينة، وعقد ملكية المكان وكذا أوراقي المهمة الأخرى، إضافة إلى النقود بالطبع، وجئت إلى العجوز بما طلبه من فلوس؛ لقاء بيعه الخراف، وما أن استقرت الفلوس الورقية في يده حتى سارع ببل شاهده بريقه، والمرور به على كل ورقة نقدية، ويعد ما تسلمه؛ فلما تأكد من أنها ستمائة جنيه بالتمام والكمال؛ تهلل فرحاً وراح يقبل الجنيهات، ثم إنه طلب من مرافقيه عقل الحيوانات بالعروة الحديدة لباب الدكان بحبل من الليف الخشن، ثم مد يده لتحيتي، وبينما هو يشد على يدي الممدودة له، قال وهو يحدق بي ويتأملني على نحو أدهشني:

ـ الخرفان لابد وأن يكون لها شأن معك. بكره الزمن يثبت لك

كلامي، وتتذكر كل كلمة منه.

ودعني بعد ذلك ومضى مع تابعيه إلى حال سبيله.

كان حسن الأول في هذه الأثناء، قد تكوم على نفسه مرتعباً، كان مرتبكاً حائراً. حسن الثالث وقد تأثر بموقف حسن الثاني كعادته، وقف يرقب سير الأحداث. أما حسن الثاني، فقد زاط وراح يتراقص بفرح، وأنا واقف أمام الخرفان الثلاثة التي خلت أنها واقفة تتأملني بدورها، وكأنها على وشك أن تمد يدها إلى يدي، وتشد عليها بحرارة، مثلما فعل الرجل العجوز منذ قليل. شددت على يد حسن الثاني، وقد داهمني فرح معربد، وغمرتني بهجة مفاجئة، تبددت معها كل سحابات الكآبة والضيق، الّذين غمرا روحي من قبل، مددت يدي متحسساً بلطف فراء الخروف سمني اللون ذي الرقعة البنية المستديرة على ظهره، والممتدة حتى آخر جنبيه. بدت في عيني، وكأنها ساعة كبيرة مستديرة ذات أستيك عريض، تبسمت برضا، يبدو أنني ضحكت بصوت مسموع بعد ذلك ودون أن أدري؛ لأن الخراف جاوبتني بثغاء لطيف، وكان حسن الأول خلال

ذلك ما زال خائفاً غاضباً بعض الشيء، أما حسن الثاني، فهمس والسعادة تطفر من صوته:

"أرأيت كم أنت مسرور الآن؟ أرأيت أن التحرر من الحسابات والعقل لن يضر شيئاً؟ قال لك حسن الأول، إنهم لصوص.. قتلة. لكن ها أنت ترى بعينك، أنهم مجرد تجار، تجار لديهم بضاعة بائرة يريدن التخلص منها بأية طريقة، وها أنت اشتريت، إنها صفقة غريبة بالنسبة إليك، ولكن لم لا. لماذا لا تجرب وتمتلك ولأول مرة في حياتك حيوانات، لم تكن تفكر من قبل ولو مرة واحدة في امتلاكها أبداً؟".

"الطريف أنك مسئولٌ الآن عنها، ربما ستصبح لأول مرة في حياتك مسئولاً عن شيء آخر غير الساعات، أليس هذا من الأمور التي تدعو إلى البهجة أيضاً. أليس هذا سبيلاً لدرء الملل والروتين الّذين تعيشهما كل يوم ومنذ سنوات طويلة، خصوصاً بعد وفاة المرحومة زوجتك؟ وربما ما قاله الرجل قد يكون صدقاً ويتحقق ذات يوم، فيكون لك شأن مع هذه الخرفان، أو تكون بداية سكة وطريق آخر

لحياتك قد لا تعرفه الآن. إن حياتك ربما ارتبطت برباط خفي مع تلك الخراف. فكر. هل تقوم بذبحها، أم أنك تنتوي الاحتفاظ بها؟ أين ستضعها؟ كيف ستطعمها وترعاها؟".

لم أنشغل بالرد على أسئلته الوجيهة، فقد كنت متحمساً جداً، واعتراني إحساس قديم كان يداخلني كلما نجحت في مادة التاريخ التي كرهتها دوماً أيام المدارس، وهو أنني أقفز من صخرة عالية إلى واد سحيق دون أن أصاب بأذى. لم أهن على حسن الأول الذي آثر ألا يقف مكتوف الأيدي متخلياً عني في هذا الموقف الصعب، فاقترح على مضض الذهاب إلى متولي عبد النبي، صاحب كشك السجاير عند أول الشارع؛ لأحضره إلى المحل، ويساعدني على ما يمكن أن أفعله مع هذه الخرفان. انتظرت متولي قليلاً حتى فرغ من رص علب اللبان الأمريكاني والشيكولاتة المستوردة على الرف الأمامي للكشك، وما إن انتهى من تعليق السوبر مان البلاستيكي الأسود في مسماره بالواجهة الأمامية ضمن مجموعة الدبابات والطائرات والألعاب الأخرى التي يضعها لإغواء الصغار عادة،

حتى مضى معي إلى الخراف التي وجدتها عندما عدت، قد اتخذت مشهداً طريفاً؛ حيث التصق ذو الرقعة البنية وهو واقف بالكبش ذي القرنين الذي برك على الأرض، وقد لامس الأول القرنين بفمه وكأنه تمثال نهضة مصر الذي شاهدته كثيراً، كلما ذهبت لزيارة أختي الصغرى في الجيزة. ابتسم حسن الثاني، وسأل متولي متلهفاً، بعد أن سرد عليه قصة الخرفان في الطريق:

ـ هه ما رأيك يا متولي؟

رفع متولي حاجبه ذا الشيب الخفيف، ونزل الآخر الأكثر مشيباً وزغر للخرفان زغرة الخبير العليم، ورد دون أن يعيرني نظرة واحدة:

ـ لو كانوا سُلاماً، ولا عيب فيهم أو علة، يبقى سعرهم لقطة. ستمائة جنيه في الثلاثة ممتاز يا عم حسن. يظهر أن أصحابهم كانوا مزنوقين في قرشين جامد، ومضطرين إلى البيع بسبب الشديد القوي. أو ربما كانوا سارقين للحيوان مثلاً. الله أعلم. راح يتحسسهم ويجس بطونهم بيده. ثم نظر في عيونهم وأردف:

ـ إن شاء الله خيراً. شكلهم معقول. لكن يظهر أنهم سرحوا كل النهار، وكلوا من المشي بعض الشيء.

أخرج حسن الثاني لسانه لحسن الأول معلناً انتصاره، ورجعت أنفاسي المبهورة، وعاودت التنفس مطمئناً، وحسن الثاني يهمس بلطف: "لا. لست متهوراً ولا مغفلاً يا عزيزي. ولم تُخدع في هذه البيعة". تشجعت وقلت لمتولي مرة أخرى:

ـ ولكن المشكلة يا متولي هي أنني لا أعرف أين أضعهم.. في شقتي، مستحيل، وحتى البلكونة صغيرة جداً. والمحل مستحيل أحطهم فيه. مشكلة.

ـ لا مشكلة ولا حاجة. اتركهم عند عبد الغفار خفير عمارة الحاج شريف الهواري. وهو يحطهم عنده في البدروم. العمارة جارِ الشغل فيها، ولم يكتمل بناؤها. عبد الغفار يرعاهم ويعلفهم. اعطه جُعلاً لبرسيمهم وعلفهم كل شهر وخلصت الحكاية.

ثمّن حسن الأول نصيحة متولي غالياً؛ مما جعلني أرى متولي خلال هذه اللحظات بعين أخرى تماماً، فلم يعد في نظري صاحب كشك

السجائر الذي زرعته الحكومة والمباحث على أول الشارع ليراقب الكبيرة والصغيرة وكل دبة نملة في الحي، بل بدا لي خلال هذه اللحظات ذلك الحكيم، ورجل المواقف الصعبة، ومندوب العناية الإلهية، التي لم تتخل عني عند الضيق.

همست لمتولي بامتنان، وحسن الثالث يزيل فتلة صوف من على كتف معطفه الرمادي تودداً ولطفاً.

ـ طيب. يعني أعطيه يا متولي على سبيل الأتعاب عشرة أو عشرين جنيهاً كل شهر؟

ـ لا. لا.. رد بهدوء وأضاف:

ـ لو قدمت له العلف والبرسيم يبقى نصيبه في البهيمة الربع. ولو هو – يعني عبد الغفار – أكّل وشرّب ورعى، يكون له في الرأس الواحد قد ما لك أنت. يعني عموماً، روح وتفاهم معه، وجس نبضه بالكلام، وشف ما يطلع منه بخصوص الموضوع.

كانت أنفاسي تتلاحق، ونبراتي تفضح استشارتي العارمة بينما أقول:

ـ لا. سأعطيه فلوس العلف كل شهر، ويكون له الربع، والله ينور

عليك يا متولي، لأنك نورتني بشورتك. تعال ندخل المحل نشرب الشاي.

ـ لا. الكشك لوحده لا يمكن تركه، ربما يعدي زبون.

ثم مضى وهو يطرقع رقبته ويحركها يمنة ويسرة لسبب لم أفهمه.

***

عبد الغفار الخفير بعين مفقوعة ووجه مطبق ممصوص ورأسه مغلف بعمامة كبيرة. فهمت من متولي صاحب الكشك أن الحاج شريف الهواري جاء به خصيصاً من بلدته الصعيدية البعيدة ليحرس عمارته التي لم ينته بناؤها بعد، وأن ذلك ليس بسبب أمانة عبد الغفار وكونه يعتمد عليه فقط ولكن لأن عبد الغفار أصله من مطاريد الجبال له سوابق قتل ونهب ومسجل خطر عند الحكومة، والحاج عباس تارك له أمور العمارة من طأطأ للسلام عليكم. فعبد الغفار مسئول عن استلام الإسمنت والمونة ويحاسب الصنايعية الشغالين في العمارة بنفسه. كما أن الحاج شريف لا يذهب إلى العمارة ولا يظهر فيها إلا تخاطيف وفي الخفاء، وصارت شبهات كثيرة

بخصوصه. فكلام جارٍ عن ضلوعه في تجارة السلاح الممنوعة بالصعيد؛ ومرة الناس ترط كلاماً بأنه شغال مع شبكة دولية كبيرة لنبش وتهريب الآثار، لأن عنده فلوساً وشققاً في بنوك بلاد بره؛ وناس حلفت اليمين أن الحكومة عارفة وساكتة، لكنها عاجزة عن مسك ممسك عليه؛ لأنه من هوارة قبلي، ومحمي بقبليته الكبيرة وعزوتها، وأن أهله وناسه أصحاب الحزم والكلمة النافذة في الدولة والبلد، وحتى عمارته صارت طالعة تسعة أدوار، يعني أنه مخالف في ثلاثة طوابق، لكن قرشه سابق في الحي، وكل الموظفين من كبيرهم إلى صغيرهم، لما يدخل عليهم شريف يهبون من على كراسيهم، ويرحبون به؛ وكأن النبي عليه الصلاة والسلام دخل عليهم؛ لأنه قافل أبقاقهم بالفلوس، وممشي حاله معهم، من أصغرهم فراش وساعٍ عمله الشاي والقهوة، وحتى أكبر رأس في المكتب. لكن اتفق أنت مع عبد الغفار، وهو جدع مع الجدع. كلمه وهو يقول لحريمه تتولى الخرفان، لكن خلّ اتفاقك معه هو ذات نفسه.

أم عربي زوجة عبد الغفار الذي لم أكن قد رأيته قبل ذلك أبداً، لخصت زوجها في عبارة واحدة، بعد أن أفصحت لها عن غرضي من مقابلته، ولاحظت أنها مستريبة قليلاً وهي تتأملني بعينين تداخل فيهما الكحل والحول، قالت "عبد الغفار يحيي العادم" ثم نادت عليه، فقام متكاسلاً من تحت عدة بطاطين كان يتغطى بها وهو ممدد على لوح خشبي فوق الأرض. وقدمتني إليه قائلة:

ـ أستاذ السواعي عاوزك؛ لأن عنده خرفاناً، وراغب في أن ترعاهم له.

شرحت بعد ذلك لعبد الغفار المطلوب، فخرج معي من عمارة الهواري وذهبنا معاً إلى المحل. بص للخرفان وهو يقدم لي سيجارة، ويضع في فمه واحدة سارعت بإشعارها له. امتص نفسين، ثم أخذ يتحسس بيده الضخمة بطون الخراف، ويفتح أشداقها، ناظراً إلى ضروسها. تململت الخراف وماءت، محتجة على عنف حركاته معها. لامس بيده أثداء النعجة، وراح يضغط عليها قليلاً براحته، وعاود سحب أنفاس من سيجارته، ثم قال وهو يهرش بين فخذيه ويسعل

سعلات سريعة متلاحقة.

ـ النعجة ربما كانت عُشراً.

ـ عُشراً؟ تساءلت.

ـ أي نعم. معشرة يعني. بكرة الأيام تظهر وضعها. ربنا أعلم.

ـ يعني يمكن تخلّف؟

ـ قلت لك ربنا أعلم يا أستاذ. نصبر عليها ونشوف. بدا لي خشناً وغير محب للكلام، وتعامل مع قضيتي ببساطة وكأنه يدخن سيجارة، حتى عندما فاتحته في أمر الأتعاب لم يكن مهتماً، واقترح أن أدفع له ثمن عليقتها، وكان ينظر إلى المحل – بينما يحادثني – بين الحين والحين، ثم قال فجأة:

ـ عاوزك توقع لي ساعة أحطها في يدي، وإن شاء الله أعطيك من ثمنها شيئاً كل مدة.

وعدته بساعة جيدة، بينما كان يفك عقال الخرفان ويسحبها معه إلى مكانها الجديد.

***

لم أهنأ بغير أسبوع من السلام، إلا وكانت حرباً حسنية شنعاء قد اشتعلت بين الحسون إياهم، وعصفت بكل سعادة جلبها لي موضوع الخراف؛ فبمجرد أن جاءني عبد الغفار ذات صباح وأعلن لي أنه لن يستمر في رعاية حيوانات المصادفة الليلية بسبب انشغالاته الكثيرة، إلا وكان حسن الأول قد أمسك بخناق حسن الثاني موبخاً، لائماً، شاتماً، ضارباً، يساعده في ذلك حسن الثالث، وقد حمّلاه مسئولية ورطة الخرفان كاملة، بسبب نزقه وتهوره ورغبته المستمرة في المغامرة وعدم التدبر والحساب. شعرت بغصة وتصببت عرقاً وأنا أشعل سيجارة، ويبدو أن عبد الغفار لاحظ ضيقي وتفهم الأزمة؛ فاقترح أن يوافني بواحد من العربان يتولى تربية الخرفان بدلاً منه، ووعد أن يكون ولي أمرهم مؤقتاً، وحتى يتسلمها الولي الجديد.

بمجرد أن انصرف عبد الغفار تركت المحل وذهبت إلى متولي، بناء على نصيحة حسن الأول الذي ترك الثاني يلعق جراحه دون أدنى مبالاة. متولي أفتى أن الحاج شريف ربما كان وراء الموضوع، ومنع

عبد الغفار من تربية الخرفان؛ لأن وجودها بالعمارة معناه أنني لابد داخلها بين حين وآخر، والهواري لا يحب زيادة الرِجل في ملكه؛ فالعمارة ربما كانت سبباً وستاراً يخفي وراءه ما يخفيه من عالمه السري؛ ذراً للرماد في العيون، وأضاف متولي؛ كل محلات الجزم والعمارات عند الهواري وأمثاله يا عم حسن ما هي إلا تغطية على ممنوعات. يعني أعطني عقلك، يعني محل الجزم يكلفونه "ديكور" فيه شيء بالرخام، وشيء بالسيراميك، وهد وبناء، وشيل وحط وحيطان وسقوف معلقة وغير معلقة، وتغيير كهرباء، يعني مسائل تدخل تكاليفها ومصاريفها في ألوف مؤلفة من الجنيهات، وبعد ذلك يبدأ الشغل في المحل. طيب لو حسبت الفلوس المدلوقة على كل هذه الأمور، والمصاريف الفارغة إياها، لوجدت أن صاحب المحل مهما اشتغل وسعى لا يمكن أن يعوض ما صرفه وحطه من رأس مال على الكلام الفارغ، من مكاسبه في البيع، حتى لو عمل "طرزان" واتشقلب شقلبة القرود، لكن الحكومة كلامها كبير ومطبل؛ لذا تسمي هذه الأمور غسيل الأموال القذرة.. هاهاهاها.

بناء على اقتراح عبد الغفار، توجهت مع متولي بعد ظهر اليوم التالي إلى جزار من معارفه لذبح الكبش ذي القرنين؛ لأنه، وفقاً لعبد الغفار "عجوز، وأكلته ضعيفة ولا رجاء منه والسكين به أولى". كتف الجزار الخروف بمساعدة صبيانه تمهيداً لذبحه، ولما لم أكن مستعداً لرؤية مجزرة، أعتبر نفسي المسئول الأول عنها؛ ابتعدت عن المكان قليلاً مشيحاً بوجهي، ورحت أتأمل البيوت الفقيرة القذرة التي تكاثرت حولي على جانبي الزقاق الضيق كبثور ضخمة، وكان عدد كبير من الأطفال الذين لفظتهم هذه البيوت يلهون ويتصارعون، لكنهم بمجرد أن سمعوا ثغاء الكبش الصارخ تشبثاً بالحياة قبل الذبح، حتى تجمعوا بسرعة وسمعتهم وهم يتهامسون، مشيرين إلى شريط الدم المتدفق بين أرجلهم. استدرت لأجد الكبش مستقراً على الأرض دون حراك، بينما بدت من عينيه الشاخصتين إلى لا شيء نظرة معاتبة جعلت حسن الثالث على وشك البكاء. حسن الثاني لم يرمش له جفن، بل رفع رأسه فخراً والأطفال يشيرون تجاهي بأصابعهم الصغيرة بعد ما اكتشفوا أنني

صاحب الخروف. فكرت أن أطلب من الجزار تقطيع لحم الخروف، الذي ابتدأ في سلخه لتفريقه على كل هؤلاء الصغار، بعد الاحتفاظ بحصة عبد الغفار، وحصة متولي على سبيل الهدية نظير تعبه وجريه معي. لكن حسن الأول اقتنع بمنطق متولي لأنه "لو بدأنا في تفريق اللحم فلن نخلص أبداً، وهؤلاء الأولاد سيذهبون من فورهم بعد حصولهم على اللحم ويرسلون آخرين غيرهم ليحصلوا على ما حصل عليه الأولون، وكله مشاكل ووجع دماغ ولا لزوم له".

"إذن ماذا سنفعل بكل هذا اللحم يا شاطر؟". تساءل حسن الأول، وسارع بتأييده حسن الثالث، فواصل حسن الأول: "لو كانت امرأتك ما زالت حية ترزق، ربما استطاعت حل المشكلة وتدبر أمر اللحم، ولو كان لك أولاد كبقية خلق الله، مثل هؤلاء الأطفال المتجمعين حولك الآن، لكنت أخذت اللحم لهم في البيت.. ولكن".

أوشكت دمعة تطفر من عيني فعلاً، بينما كلمات حسن الأول ترن في أذني وتمزق قلبي تمزيقاً. تماسكت لئلا يراني أي من الواقفين حولي،

وترحمت على زوجتي وأيامها، فهي كم كانت شاطرة، مدبرة تجيد التصرف في مواقف من هذا النوع ومواقف كثيرة أخرى، وأنّبت نفسي لأنه مرَّ وقت طويل دون أن أذهب إلى القرافة لزيارة تربتها ووضع زهور عليها والإتيان بمقرئين ليقرئوا على روحها الطاهرة بعض آيات القرآن الكريم.

قررت تفريق اللحم – في النهاية – على إخوتي وأخواتي، وكذلك بواب العمارة التي يقع بها دكاني، برغم مقتي له، فهو يؤجر شقتين مفروشتين في العمارة من الباطن بين الحين والحين، ودون علم صاحبهما الخليجي، الذي لا يأتي إلا لمدة شهر أو شهرين كل سنة مع عائلته للإقامة بهما خلال فصل الصيف. وكنت أكرهه أيضاً لأنه يعمل في سمسرة الشقق كذلك، ويشاع عنه أنه ناضورجي لموظف الجمارك ساكن الطابق السابع بالعمارة، والذي يدير شقته لأعمال القمار. لكن البواب عياله ستة وامرأته مسكينة يضربها على أهون سبب، ويضن عليها وعلى عياله بالفلوس، واللحم ستأكله هي والعيال على كل حال.

مر أسبوع على ذبح الكبش، الذي كان تفريق لحمه مناسبة جيدة لأحظى باهتمام كان قد فتر من بعض إخوتي وأخواتي، فقد فرقت عليهم معظم اللحم، والبنات كُن أكثر اهتماماً من الذكور، وزيارتي لأختي الكبيرة بهذه المناسبة كانت فرصة مواتية لها كي تفاتحني من جديد في موضوع ضرورية زواجي مرة أخرى، وأن سبعاً من السنين تكفي للحزن والترمل بعد وفاة امرأتي الراحلة؛ إذ يتوجب أن يوجد من يرعى شؤوني بالنهار، ومؤانسة وحدتي في الليل.

في الحقيقة لم أجادلها كثيراً في موضوعها هذا، والذي لا تمل من الحديث فيه كلما التقينا، بل سايرتها مؤمناً على كلامها دون اقتناع وحتى أنهي الموضوع؛ فأنا لا أفكر في هذا الأمر أبداً بعد ترملي، ولا أفكر في النساء كثيراً الآن؛ فقد كنت أحب زوجتي حقاً، وكانت تملأ حياتي كلها، وعلى الرغم من أنني عقيم ولا رجاء في قدرتي على نفخ بطن أية امرأة بطفل واحد، ووفقاً لكل الأطباء الذين عاودتهم خلال فترة زواجي، إلا أن امرأتي لم تتذمر قط، على الرغم من حبها وتعطشها لأن يكون لها طفل، بل هي تعاملت مع الأمر كأنه نوع

من القضاء والقدر، وظلت تعاملني طوال حياتنا الزوجية وكأنني طفلها المدلل الوحيد، وكانت تصر على أن تحممني بنفسها وتدلك ظهري بالليفة كل يوم، كما كانت تلبسني بنفسها جواربي كل صباح – برغم ضيقي بذلك – وتدلك قدمي بكيفها الناعمتين، وكنت في الحقيقة أستمتع بذلك كثيراً وأشعر كما لو كنت هارون الرشيد نفسه. لقد عوضتني هذه المرأة كثيراً عن حنان أمي التي لم تدللني قط، بل ظلت تعاملني دوماً كرقم مهمل ضمن ستة بطون أنجبتهم، وكان لسوء حظي أن رقمي تأخر عن عنقود رحمها الذي ذبل سريعاً – كما كانت تظن – وقبل بلوغها سن الخمسين.

إن زواجي مرة أخرى مسألة غير واردة أبداً، فأنا أظن أنه لا يمكن أن توجد امرأة قادرة على أن تعوضني عن امرأتي الراحلة أبداً، ولا يمكن أن أتصور أية مخلوقة على وجه الأرض تستطيع أن تحل محلها في بيتي، وتشكل ذلك العالم الجميل الآمن الذي كانت تضمنه زوجتي بمهارتها ورقتها ورقيها، ونظرتها الثاقبة إلى الدنيا والأشياء.

خلال ذلك، جاءني رجل إلى المحل، وقال إن عبد الغفار أرسله إليَّ

بخصوص الخروفين، وقال كذلك إنه لا يربي خراف غيره أبداً، لأنه يؤمن بالمثل القائل: يا باني في غير ملكك.. إلخ، لكنه مستعد لمشاركتي في خرفان من عنده إذا رغبت في ذلك، وهذا موضوع منفصل عن موضوع الخروفين الّذين كانا ما يزالان في رعاية عبد الغفار الخفير، ثم أخبرني أنه سيفاتح امرأة بدوية من معارفه، أمينة، ويثق بها في تربية الخرفان، على أن تأخذهما وترعاهما ضمن خرفانها، وهي ولية مسكينة لأن زوجها عجوز مقعد، وهي صاحبة عيال أحناكهم مفتوحة ولابد لها من الجري عليهم كل يوم.

شكرت الرجل وعبرت عن امتناني الشديد له، على الرغم من أنه بدا لي غريباً ما، فبرغم جلبابه الكالح المتسخ، كانت أضراسه الذهبية تستبين وتلتمع كلما فتح فمه ليتكلم. شكرت الرجل وعبرت له عن امتناني الشديد مرة أخرى، وقبل أن ينصرف قال إن لديه ساعة إنجليزية قديمة وهي بكتينة من النوع الذي يعلق في الصدر وقال إنه ورثها عن جده الذي عثر عليها ذات مرة في صحراء مصر الشرقية، وإنها ربما تعود إلى واحد من جيش الإنجليز

الذي هزم عرابي، وهو يرغب في إصلاحها، ثم إنه صمت قليلاً قبل أن يقول فجأة:

ـ وعندي حاجات قديمة مهمة قوي، لو عندك معارف يفهمون فيها ويحبون شراءها، تعمل معاك شغل جامد جداً. أجيب لك منها شيئاً مناسباً. الصحراء ملآنة خيراً.

شكرته متأففاً، ولم يكن من الصعب تخمين أن المقصود بالأشياء القديمة المهمة هي قطع فرعونية، معروفٌ أن العربان ينقبون عنها في الصحراء دوماً، ويبيعونها لتجار الآثار ومهربيها.

❋ ❋ ❋

عادت حياتي إلى وتيرتها المعتادة بعد ذبح الكبش العجوز. أفيق حوالي الساعة الثامنة صباحاً لأفطر رغيفاً بالجبن الأبيض أو الرومي مع كوب من الشاي، ثم أبتلع دواء ضغط الدم المرتفع ثم دواء النقرس، وبعدها أشرع في ارتداء ملابسي وأتوجه إلى الدكان، الذي لا يبعد مكانه عن بيتي إلا بحوالي ربع ساعة سيراً على قدمي، وأشتري خلالها الجريدة لأقرأها في المحل، بينما أتناول فنجاناً من

القهوة بسكر خفيف.

كنت قد أنجزت كل طقوسي هذه عند واحد من الصباحات التي أعقبت زيارة ذي الأضراس الذهبية بأيام، وكنت قد انتهيت من قراءة صفحة الوفيات وصفحة الحوادث، وعبرت الصفحتين المملتين للأخبار المحلية والدولية بناظري عبوراً سريعاً خاطفاً، وعندما شرعت في قراءة برامج القنوات التلفزيونية المختلفة لأختار ما سوف أشاهده من أفلام وبرامج بعد عودتي إلى المنزل في المساء، وبينما كنت أضع علامة √ بالقلم الجاف أمام فيلم "دلع الستات" الذي كان سيعرض في سهرة القناة الثالثة، كانت هي تقف عند باب المحل. تتلفت قليلاً وتنظر إلى ساعة الحائط القديمة الموضوعة داخل الواجهة الزجاجية، وعندما رفعت رأسي عن الجريدة وقد لفت انتباهي وجودها صاحت بصوت عال أشبه بصياح الباعة الجائلين عندما يعلنون عن بضاعتهم:

ـ صباح الخير يا عم.

ثم إنها دخلت وجلست أمامي من فورها، ودون أن أدعوها إلى

ذلك، بعد أن زحزحت قليلاً واحداً من الكرسيين المخصصين لجلوس الزبائن وراحتهم أمام طاولتي، عندما يأتون لتسليمي ساعاتهم الميتة، أو يتسلمون تلك التي أنفحها أرواحاً جديدة.

قالت مباشرة وبذات الأداء الصوتي السوقي:

ـ جيتك من عند حمد بن حسين، بخصوص النعجة والشاب وتربيتهم مناصفة؛ ولو قدر الله مصيبة تجرى، يبقى عوضي وعوضك على الله.

بدت لي فجاجتها لا تحتمل، مثلما هذه الرائحة الخفيفة المنبعثة منها، والتي بدت لي كنوع من العطر الرخيص وقد امتزج برائحة قطيع كامل من الخراف. تأففت، وأنا أنظر إليها من تحت عدساتي المخصصة للقراءة وقد حولت عيني عن الجريدة ثم قلت:

ـ حلمك عليَّ الأول. الناس تبدأ الكلام بصباح الخير وطريقة فيها أخذ ورَد، ثم تدخل في الموضوع. هه؟

رفعت النظارة عن عيني ووضعتها على الطاولة واستطردت:

ـ الأول قولي لي اسمك.

ـ اسمي صهبا، أم مناع، وعيالي صفا وشروق وسعاد ومناع، مدوخيني قطيعة العيال، وعبد العليم وتوفى وعمره سنتان، وكان أحلى منهم كلهم.

صُدمت. فكيف لهذا الجسد النحيل الضامر أن يلقي بخمسة بطون ويطرحهم إلى هذه الدنيا؟ بل متى تم ذلك؟ فهذه المرأة تبدو لي وكأنها لم تتجاوز الثلاثين بأية حال من الأحوال؛ فعلى الرغم من قصرها الشديد، جسدها ضامر وبشرتها مشدودة وعيناها داكنتان واسعتان ملتمعتان كساعتين خرجتا لتوهما من المصنع، والبهرجة بادية في حركتها، وجلبابها النايلون الرخيص الملون بفراشات زاعقة الخضار والحمار، إضافة إلى بنس شعرها الملونة بألوان الحلوى الرخيصة، والمرصوصة بغرتها المعقوفة إلى جانب جبينها، وقد بانت من تحت طرحتها السوداء.

قلت:

ـ بسم الله ما شاء الله خمسة.

ـ أي نعم.

ـ يعني أعطيك الخرفان في الحال، وترجعي كل مدة تأخذين نظير علفهم، أو يكون الأمر مناصفة؟ أنت ورغبتك.

ـ مناصفة قلت لك.

ـ يعني مناصفة في البيع؟

ـ اصبر لما يحول الحول.

تحيرت قليلاً. سألتها:

ـ هل أنت ساكنة بعيد؟

ـ في عرب الحصن بعد المطرية. قريب.

لم تكن عرب الحصن قريبة بالنسبة إلى حدائق القبة، فهي بعد عين شمس بمسافة. توقفت قليلاً، وفكرت لماذا تظن هذه المرأة أن عرب الحصن قريبة، أو بالأحرى قريبة بالنسبة إلى ماذا؟

عرضت عليها أن تشرب شاياً فوافقت، قمت ودخلت إلى الجزء الخلفي من الدكان، والمفصول عن الجزء الخارجي حيث أعمل وأعرض الساعات بستار من قماش الكتان المشجر. رحت أضع غلاية الماء على موقد الغاز الصغير الذي أستخدمه خلال يومي

لصنع المشروبات الساخنة أو الوجبات السريعة. كنت أحتفظ خلف الستار أيضاً بسرير سِفري ومشجب ومرآة حائط وأشياء أخرى أستخدمها عندما أقيّل في المحل أحياناً وقت الظهيرة في الصيف، ولا أذهب إلى البيت.

شربنا الشاي معاً، ثم ذهبنا بعد ذلك إلى عبد الغفار الخفير لتأخذ هي النعجة والشاب، ولأنسى بعدها الخرفان، ولمدة أسبوعين، وكأنها لم تكن أبداً.

***

هلَّ شهر رمضان، فدعتني أختي الكبرى كعادتها إلى مائدة طعام أول إفطار رمضاني، مع كل أشقائي وشقيقاتي وزوجاتهم وأزواجهن وعيالهم جميعاً، وبعد وجبة دسمة، غنية بكل أنواع الكولسترول، كما هي العادة في طعام شهر رمضان، وبينما كنت ألتهم طبق خشاف قمر الدين، نادت عليّ مريم آخر عنقود أختي، بينما كان الجميع يتجادلون في معضلة رمضانية هي: كيف يفطر صائم داخل مركبة فضائية خرجت من المجال الجوي للأرض؟

تنبهت إلى صوت مريم:

ـ خالي. مالك سرحان، وكأنك قاعد لوحدك في مكان آخر.

كنت سارحاً بخيالي فعلاً، أستمع إلى اجتهادهم وفتاويهم دون أن أشارك فيها "ليس على المسافر حرج". "يفطر الأذان المحلي للبلد الصاعد منه إلى السماء". أو "إن الله غفور رحيم وسيقبل عذره وخطأه، فالمهم النية". كنت أوثر الابتسام الخفيف مجاراة لهم، دون الدخول في حومة النقاش والجدل، مثلما لم أجاوب مريم إلا بهز رأسي نفياً وأنا أقول: "أبداً ولا حاجة". كنت مع نفسي خلال هذه اللحظات، مستغرقاً في رشف السائل المشمشي اللاذع لذوعة خفيفة محببة، أحدق في محتويات الطبق الوردي ذي الحروف المذهّبة، فداخل الطبق لم يكن هناك الزبيب السابح في الخشاف، وحبات التين المجفف، بل حلمات صغيرة داكنة كحلمات صهبا، تلك الذابلتين التي فاجأتني، وراحت تسقط على كل الأوهام والأقنعة الزمنية، وتداخلني في زمنها الغامض الغريب، بينما كانت تساعدني وتزيح عني ملابسي وكل قطيعة ثياب تباعد ما بيننا.

كانت قد جاءت بعد أسبوعين من أخذها الخروفين، ودون مناسبة مفهومة وقالت إنها جاءت للمنطقة كي تشتري قماشاً لابنتها الكبرى؛ لأنها على وشك الزواج، فلما كانت عند تاجر القماش القريب من دكاني، فكرت في المرور للسلام، ولتطمئنني على الخروفين. كان وجهها المستدير الصغير نسبياً، والذي يضفي على ملامحها ملامح الأطفال، قد منحته الشمس نور النحاس، وكانت ثيابها الداكنة لا تسمح إلا بإبراز مساحة يسيرة من صدرها الضامر. اعترتني حالة من الارتباك، إذ وجدت المرأة ودوداً على نحو لم أتوقعه منها، وصوتها يتلون برقة لم أعهدها فيه خلال الزيارة الأولى. قمت من وراء طاولة شغلي، ودخلت إلى ما وراء الستار، بعد أن قلت لها: "ما رأيك، تشربين شاياً معي؟". فأومأت برأسها موافقة، ويبدو أنها لاحظت خطواتي المرتبكة بعد نظرتي الخاطفة على صدرها، أو لعلها قدّرت حالة الانفعال البادية على ملامحي، وقد اندفع الدم إلى أوصالي كلها، ففاجأتني، بينما كنت واقفاً أمام موقد الغاز، شارعاً في وضع الإبريق على النار، ووقفت خلفي مباشرة

تكاد تلتصق بي وهي تقول:

ـ قلت أساعدك في عمل الشاي.

لا أدري ما الذي حدث بعد ذلك، كان حسن الأول نائماً يغط في سلام، بينما حسن الثاني يشير إلى أن أطفئ الموقد بسرعة. حسن الثالث حاول إيقاظ الأول، لكن دون جدوى، وكل ما أذكره بعد ذلك هو أنني تعرفت لأول مرة على التضاريس الفقيرة لذلك الجسد الهزيل، وقد نهدت هضبتاه في تواضع، وانتهيتا بهاتين الزبيبتين الصغيرتين اللتين أراهما الآن سابحتين في مرق الخشاف الرمضاني.

صهبا، كانت مذهلة، سريعة، متواترة، مباشرة وتنقل نارها دون مقدمات كفرن تجمع الغاز به، وألقي فيه عود كبريت فجأة. لم تتكلم كثيراً؛ فقد سحبتني من يدي إلى السرير السفري الضيق، وسربلتني بمتعة مغموسة في شهد مصفى. نسيت معها رائحتها الخرافية، وعرقوبيها الشبيهين بعراقيب المعيز، وجسدها الجاف الناشف كحطبة، وتلك البنسات الرخيصة الملونة التي ترصها إلى

جانب بعضها البعض على غرتها السوداء الناعمة، وأخذت في تشغيل ساعة غامضة كانت قد توقفت عقاربها عن الحركة وصدأت مُذ أن ماتت زوجتي، وظننت أن بموتها تموت كل نساء العالم؛ فأنا لم ألامس امرأة منذ وفاتها؛ إلا تلك المرأة التي أربض فوقها الآن، حتى عندما كنت أسير في الطريق ذهاباً وإياباً، من وإلى دكاني، لم أكن أعير النساء اهتماماً.. وهل كانت في الدنيا نساء غير زوجتي؟
عدت إلى منزلي بعد ذلك المساء، وعند الردهة الداخلية المفضية إلى الحجرات الداخلية طالعتني صورة زوجتي المعلقة أمام باب حجرة النوم، فألقيت إليها بتحية المساء مثلما تعودت أن أفعل دائماً، توقفت أمامها، متأملاً قليلاً، خلت أنها تبتسم لي، فابتسمت بدوري ابتسامة خفيفة وهززت كتفي بعد أن قرصني حسن الثاني قرصة خفيفة. حسن الأول والثالث انتحيا جانباً يتناقشان فيما حدث خلف الستار، تجاهلتهما ودخلت الحجرة، ولكن ما أن خلعت هدومي وتمددت على السرير إلا ووجدتني أنخرط في بكاء مرير، وحسن الأول والثالث يتبادلان صفعي صفعاً موجعاً ويصفاني بأحط

الألفاظ ملومين معاتبين، مؤنبين لجريي وراء حسن الثاني ونزقه المعهود.

بمرور الوقت وبعد عدة لقاءات مماثلة مع صهبا، لم يعد يداخلني أي نوع من الحزن، بل كففت النظر إلى صورة زوجتي وتحيتها مثلما تعودت أن أفعل كل ليلة عند عودتي في المساء، والحقيقة أن نوعاً من السخط وعدم الرضا بدأ يداخلني حيالها، فبعد كل مرة كنت ألقى بها صهبا كان حسن الثاني ينتحي بي بعيداً عن غريميه. ويشرع في سرد وجهة نظر: "لقد خدعتك هذه المرأة مرتين، الأولى: عندما ماتت فجأة وتركتك وحيداً، والثانية أوهمتك طوال السنين التي عشتها معها أنها امرأة حقاً. انظر إلى نفسك الآن بعد أن أدخلتك صهبا مغارتها السحرية. انظر إلى ساعتك الجسدية التالفة المهملة وقد ردت إليها الروح، لقد صرت يا بني وكأنك علي بابا بعد أن فك الشفرة المستعصية الموصلة إلى كنوز الدنيا ومتع الحياة.

حسن الأول هدأ وبات أكثر عقلانية، فلم يعد يؤلمني إلى حد البكاء، بل اكتفى بتأنيب وتكثيف شعوري بالذنب. "المسألة ليست

أنك تخون زوجتك الوفية المتوفاة مع امرأة أخرى، ولكن المؤسف هو أنك تخونها مع امرأة عجفاء بعرقوبين فظيعين، وتنبعث منها دوماً رائحة خراف زنخة. لو قامت زوجتك من قبرها ورأت هذه المدعوة صهبا، ببنسات شعرها الصفيح الملونة، وفجاجتها في الكلام، لرغبت في الموت والعودة إلى مرقدها الترابي مرة أخرى. زوجتك كانت امرأة راقية. ولدت وعاشت هنا في هذه المدينة، عندما كانت مدينة حقاً. أبوها كان ترزي علية القوم، فصل لها وألبسها أجمل الهدوم وأرقى الفساتين، وهي لم تكف حتى وقت موتها عن الذهاب إلى مزين الشعر مرة كل أسبوع، والاعتناء بقدميها وأظافر يديها، وكانت في بيتها سيدة بكل معنى الكلمة، سيدة تعرف كيف تعد أشهى الطبخات، وكيف ترتب أثاث البيت، وكيف تستقبل الضيوف. إنها تنتمي إلى هذه المدينة يا بني عندما كانت مدينة حقاً، مدينة تحترم الجمال، معمارها فن، ونادراً ما يخلو بيت فيها من حديقة أو حتى شجرة. شوارعها نظيفة وهادئة، وأناسها حريصون على أن يليقوا بها.

لكن يبدو أنك نسيت أمر زوجتك ومن تكون، وكيف عاشت، وها أنت الآن تجري وراء أول بهيمة رفعت لك ذيلها. هل أنت حيوان؟ توقف وابتعد عن هذه المرأة البدوية الفجة؛ لأنها ستقودك إلى سكة لا يعلم إلا الله إلى أين ستكون نهايتها، وكيف ستكون حالك فيها، أنت تتدهور يا صديقي، تنحط؛ وأنا أحذرك بشدة".

خطبة حسن الأولى حفظتها عن ظهر قلب لكثرة ما يرددها على مسامعي صباح مساء، لكنها في الحقيقة؛ وبصرف النظر عن وجهة نظر حسن الثاني، لم تزدني إلا توغلاً في علاقتي بصهبا؛ فقد صرت مدمناً لها، وصارت كروح العطر المنعشة لروحي الضائعة، كان هناك شيء غامض جاذب فيها لا يمكن وصفه، جذبتني إليها مثلما انجذبت ذات مساء إلى ثلاثة كائنات لم أفكر فيها أبداً فاشتريتها. كانت حاذقة في ضبط إيقاع ساعتها الجسدية على ساعتي، وإدارة عقاربها في الاتجاه ذاته وبالإيقاع عينه، لندور وندور معاً في زمن فريد من اللذة، ما إن نتعب من الدوران فيه، إلا ونكون راغبين في التوهان فيه مرة أخرى.

حكت صهبا لي عن زوجها العجوز المقعد وقد تزوجته إلزاماً؛ لأنه ابن عمها الكبير، قالت إن لغماً انفجر فيه ذات غروب؛ عندما كان قافلاً إلى نجعهم بعد رعيه الغنمات، وقالت بأن اللغم ربما كان من أفعال الإنجليز أو الإسرائيلية وقت حرب بورسعيد، لكن ذلك لا يهم في شيء؛ فالرجل فقد ساقيه الاثنين، ومع ذلك فحبها له زاد عما كان عليه؛ وهي سعيدة ببناتها الثلاث، لكن ابنها الوحيد عاق وخارج عن طوعها، وعالة عليها؛ بدلاً من أن يكون عوناً لها؛ فهو مدمن مخدرات ويعيش بلا عمل، بل ويضربها أحياناً إذا لم تعطه نقوداً، ولهذا السبب تحديداً حولتني صهبا إلى بنك خاص بها، فكلما تجمع لديها فائض فلوس كناتج بيعها بعض من الخراف، تجلبها لي، كي أحفظها لها، وهذا ما فعلته بحرص؛ إذ كنت أضع فلوسها في مظروف خاص أودعه خزانتي الحديدية؛ وقد كتبت عليه بحروف واضحة اسمها "صهباء".

***

لم يمض وقت قليل، إلا وكانت حياتي قد انقلبت رأساً على عقب ولا أدري أكان ذلك بسبب الخراف أم بسبب صهباء؟ لقد أصبحت أقل حماسة للعمل؛ غير مبال بالساعات دارت أم لم تدر، ولأول مرة ومنذ سنوات طويلة بت غير مبال بها، وغير مكترث بتأملها، فمُذ كنت طفلاً، تعودت أن أمضي أوقاتاً طويلة، ليس في اللعب والجري مثلما يفعل الصغار، بل في الجلوس هادئاً مستكيناً عند والدي بمحلي هذا – الذي كان محله وقتها؛ ثم تركه لي بعد ذلك – أراقبه وهو يعمل، وأحدق النظر في الساعات الموجودة حولي بالمكان. لم أكن أشعر في ذلك الزمن الطفولي البعيد – على ما أذكر الآن – بأي نوع من الملل، أو بانقضاء الوقت وسريانه، بل كنت أجد لذة هائلة في تعقب الحركة المتلاحقة لعقارب الثواني والدقائق بنظري وهي تشكل الزمن بحركتها الرتيبة المزمنة راسمة في أذنيّ إيقاعها اللامتناهي: تك. تك. تك، مهما كان نوعها، وأياً كان حجمها، ومهما كان شكلها، كلها كانت تنبض النبض ذاته، بالزمن ذاته؛ والإيقاع ذاته. تك. تك. تك، وكم كان يسحرني ذلك،

ويبهر أنفاسي؛ ويجعلني عاجزاً عن الفكاك من سحر الإيقاع اللامتناهي الغامض غموض الزمن والعالم بالنسبة إليَّ وحتى الآن.

أصبحت منذ واقعة الخراف وما لحقها من وقائع مع صهباء بعد ذلك، أتأخر في تلبية طلبات زبائني، كما فترت حماستي كثيراً للإمساك بالمفكات الصغيرة والتروس والعدد، ثم اعترتني حالة من اللامبالاة، حتى أن بعض الزبائن كانوا يعودون إلى المحل نافدي الصبر ليأخذوا ساعاتهم دون إصلاح بسبب تقاعسي ومماطلتي لهم ويمضوا غاضبين، دون أن يهتز رمش واحد لي، وبلا كلمة اعتذار واحدة لهم أو وعد مني بإصلاحها في أقرب وقت مثلما كنت أفعل معهم عادة، كما لم يعد يعتريني ذلك الشعور القديم بالزهو والانتصار؛ كلما نجحت في إصلاح ساعة عاطلة بليدة تتمرد عقاربها عن الحركة والدوران بالوقت. حتى قلبي بات بارداً ولم يعد يخفق تلك الخفقات السريعة المتلاحقة؛ كلما جاءني أحدهم بساعة أصيلة نادرة متقنة الصنع، مرهفة الأداء؛ حساسة للزمن؛ فأتحدى معضلاتها، وأنفحها من جديد رونق زمنها المفقود.

ومنذ أن تعرفت إلى صهبا، والخراف باتت شغلي الشاغل، وصار عالمها يجتاح عالمي، ويهيمن عليه شيئاً فشيئاً. فالشاب والنعجة اللذان كانا مدخلي الأول إلى عالم الخراف، تمخضا وبمرور الوقت عن عدد لم أعد أتذكره على وجه التحديد؛ فالنعجة خلفت بعد شرائي لها بأشهر قليلة عدداً من الحملان، سرعان ما صنع الشاب منها عشيرة، راحت تتوالد وتتكاثر كمتوالية هندسية لا نهائية. وكانت صهبا توافيني بكل تفاصيل غنمي أولاً بأول: أكلها وشربها، الأمراض والعلل التي تصيبها، الحوادث التي ألمت بها، كحادثة الخروف المصروع غدراً – وفقاً لرواية صهبا – بعد أن دهمته سيارة شاب صغير متهور في مدينة نصر، بينما كانت هي – أي صهبا – تعبر بالقطيع أحد الشوارع بالمدينة، بعد أن كانت قد تركت القطيع يرعى حيناً، ويلتهم الحشائش المزروعة بواحدة من حدائقها العامة بالقرب من قصر المؤتمرات الدولية هناك.

الأهم من ذلك هو أن صهبا باتت توافيني بمردود مالي لا بأس به، كان مغرياً بما يكفي لتوظيف جزء منه مرة أخرى في مزيد من

الخرفان التي باتت ومنذ ذلك الحين، كائنات مميزة شديدة الجاذبية، تستحق كل ذلك الندم، وما يداخلني من مشاعر غامضة غريبة؛ لأنني كنت غافلاً عنها طوال السنين الماضية؛ ومنشغلاً بالساعات، دائراً كثور أعمى معصوب العينين في دائرتها، بينما أدور تروسها، وبينما هي ترفع الوقت وتدور به كسواقٍ دقيقة، من داخل بئر الزمن الأبدي وتلقي به لحظة وراء لحظة إلى نهر عالم مجهول غير معروف النهاية بأية حال؛ وفي كل مرة كنت أتواصل فيها مع صهباء، كانت تتصاعد بداخلي مشاعر غامضة متناقضة. قلت لها ذات مرة ونحن غائبان في زمننا النشوان، وقد بلغنا ذروة ذرانا: سوف آكلك. سألتهمك تماماً كقطعة أرواح صغيرة تذوب في الفم.

بدت لي كأنها مكترثة بمبالغتي الشعورية؛ إذ أزاحتني عنها برفق، ومسدت ما تحت ساقيها من الرجل وقالت:

ـ إياك كُراعى راجل كلب.

كانت كلمات مثل "كُراعى"، و"كنزى"، و"قلتى" وكلمات أخرى مماثلة، تقولها صهباء، تجعل حسن الأول والثالث تنقطع أنفاسهما

من الضحك، لكن بعد فترة، باتت غرابتها لذيذة محببة بالنسبة إليَّ، مثلما برتقالتي صدرها الجافتين وعرقوبي قدميها، بل بت خبيراً ببعض مفرداتها البدوية الخشنة، فاكتفيت بالابتسام عندما نعتتني براجل كلب، إذ كنت أعرف أنها قصدت أنني مجنون وفقاً للغتها – ولست كلباً كما كنت أظن في بداية علاقتي بها؛ لكن رائحتها الخرافية النفاذة ظلت هي المشكلة الوحيدة المؤرقة لغرامي الغريب بها، والتي عجزت عن حلها دوماً، فما قدمته لها من صابون معطر فاخر اكتشفت أنها لم تستخدمه أبداً، بل احتفظت به لابنتها المخطوبة الموشكة على الزواج، صدمتي الثانية كانت مع زجاجة عطر ماركة أمازون، أهديتها ذات مرة لزوجتي الراحلة: قبيل وفاتها بقليل، لكن الله شاء أن تموت دون أن تفتحها أو تمس قطرة واحدة منها. صهباء، بمجرد أن تشممت رائحة نساء هوميروس الشهيرات داخل الزجاجة الأنيقة صاحت:

ـ ما هو مسك، وما هو عنبر؛ حوشه.

عبارتها صدمتني بقوة لا تقل عن اللطمة التي تلقيتها من حسن

الأول على وجهي وهو يصرخ: "أرأيت كيف ضحيت في سبيلها بالنفيس الغالي وهي لا تبالي بسبب جهلها وفجاجتها وعدم تمدنها".

لقد آلمني حقاً أنها لم تدرك أن العطر كان من ضمن أشياء زوجتي الخاصة التي حرصت على الاحتفاظ بها كأيقونات مقدسة طوال سنوات بعد وفاتها، فظل بمكانه داخل دولاب الملابس ضمن أشيائها الأخرى وتفاصيل حياتها المتناثرة في مقابرها داخل أدراج تسريحة شعرها ورفوف الدولاب، إلى جانب عقود صدرها وأقراطها وخواتمها وأمشاطها، وكذلك أدوات التجميل، وحتى ملابسها الداخلية – وكم كانت أنيقة دائماً – أبقيت عليها مع إيشارباتها الحريرية الفاخرة وأحزمتها الجلدية – الأحذية كانت هي الشيء الوحيد الذي تخلصت منه فقط من بين كل متعلقاتها الشخصية – ولا أدري السبب في ذلك. وهكذا تحولت غرفة نومي إلى متحف دائم لتفاصيل حياة قديمة عشتها، لا يزوره إلا زائر واحد كل يوم هو أنا.

غير أنني وبمرور الأيام، بت معتاداً على عبير صهبا الخرافي، بل على الاعتراف بأن تلك الرائحة، صارت تثير بداخلي مشاعر سرية غامضة لا يعرفها غير حسن الثاني فقط؛ فقطيع الخراف المنبعث من جسدها، كان يتسلل إلى أنفي وكأنه بعض من روائح عالم طفولتي البعيدة: رائحة القطط الضالة على السلالم الرطبة لمنزلنا القديم وهي تنظف نفسها بعد التهامها بقايا أسماك نيئة من صفائح الزبالة، ورائحة أخي الصغير وهو يثغو وقد أخرج فمه من ثدي أمي؛ بعد أن فاض حليبها على ذقنه الصغير وعبقت رائحته خياشيمي، ثم تلك الرائحة التي لا تنسى: مرق الإوز مع الكسكسي وهو ما كانت تحرص أمي على طبخه لنا مع حلول يوم عاشوراء من كل عام.

كنا بمجرد أن نختفي معاً خلف الستار، وتعبق المكان بخلطة الصوف والدهن الرعوي، سرعان ما تتملكني بهجة طاغية في الاختفاء بسرداب زمنها الجسدي المستحيل الفارق عن كل زمان عشته أو يمكن أن أعيشه بعد ذلك. كانت علاقتنا بلا مطالب، فمع كل المشاعر الحارة والحميمة من ناحيتها، والإقبال "منقطع النظير"

من ناحيتي لم يكن هناك ما نطلبه من بعضنا البعض، فهداياي لها ومهما كانت قيمتها قابلتها هي بنوع من اللامبالاة وعدم الاهتمام مما دفعني إلى التوقف بمرور الوقت وقد أشعرتني أنه لا ضرورة لها، وبت موقناً بأنها لا ترغب مني إلا في زمن قوس قزح العابر، نمضيه معاً وراء الستار عابرين به فضاء نشوة لا تحتمل، لم يقدر لي أن أعيشها قبل ذلك أبداً، حتى خلال زمن يفاعتي الأولى مع بنات الجيران أو خادمات منزلنا الريفيات.

كانت المسافات بيني وبينها بعيدة، وخطوطنا متوازية أبداً وغير قابلة للالتقاء، غير أنه وبمجرد أن نجتاز الستار بين خارج وداخل مأوى الساعات، تتحول هذه الفواصل إلى خيوط دقيقة واهية، تجعلني لا أتصور حياتي دون امرأة الخراف هذه، وما إن نبدأ في الوصال إلا ونتحول إلى عقربي ساعة لا يكفان عن الدوران واللهاث مع بعضهما البعض في إيقاع متواتر دؤوب ليقتنصا فرصة خاطفة للتطابق الحميم، يصبحا خلالها وفيها يشبه السحر، كلاً في

واحد، ليعودا فيتباعدا شيئاً فشيئاً ويدورا مرة أخرى في فلكيهما المتنافرين، وليمضي كلٌ إلى سبيله وعالمه المحتوم.

* * *

كنت بعد أن تغادرني صهباء، أظل وقتاً بالمحل، عاجزاً عن فعل أي شيء، ويداخلني إحساس بأنني فاقد الوعي وأتابع مستسلماً النقاش المندلع بين الحسون الثلاثة، فحسن الأول والثالث يصران على أن ما بيني وبين صهبا هو مجرد نزوة لرجل وامرأة اصطدما في صدفة أرضية متكررة. أما حسن الثاني فيرى أن العلاقة بيني وبينها إنما هي قدر محتوم، لا يمكن تجاوزه أو الفكاك منه، وإلا فلم كل هذا الولع – وكما تقولان يا أول ويا ثان، بتلك البدوية الفجة ذات الرائحة الخرافية، وبنس الشعر المبتذلة وبرغم "أنك عشت في هذه المدينة العريقة، وانحدرت من عائلة لم تعرف في الدنيا مدينة سواها، ولطالما احتقرت كل ما لا يمت بعالمها بصلة، فالآخرون الذين لا يعرفونها إما بدو متوحشون وإما فلاحون أجلاف".

معارك الأول والثاني والثالث، ونقاشاتهم النارية بخصوص صهبا،

نجح الزمن في الإجهاز عليها شيئاً فشيئاً، فلتضع صهبا بنسات شعر معدنية رخيصة أو عقوداً من الخرز الملون كالتي في رقاب الخيل، ولتدلك نفسها برائحة الخرفان المبلولة – إن شاءت – أو لتنقع نفسها في عطور رخيصة نفاذة، ولتذهب إلى الجحيم كل تلك المقارنات المعقودة دوماً بينها كبدوية وبين زوجتي الراحلة المتمدينة. وما لها فطيرة الذرة الشامية بالعسل الأسود والحلبة التي جاءتني بها ذات يوم؟ فلتذهب كيكة البرتقال والزبيب إلى الجحيم، وليسقط السويس رول والترايفل وكل ما كانت تبرع في عمله زوجتي من حلويات وعجائن إلى الجحيم، وليعش عالم ما وراء الستار. ففي سرداب لذته السرية تكمن الحقيقة وتكمن الحياة، حياة مديدة لحمالات الصدر النايلون الحمراء والقمصان وكلاسين بلون البرسيم وقرون الفول والشطة الحمراء، أوليس وكما تقول هي دوماً: "إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكنه ينظر إلى قلوبكم". وها أنا لا أنظر إلا إلى قلب صهبا وتوابع قلب صهبا، وها أنا الآن صرت أعاملها برقة مقصودة وحنو مجنون، وأخشى عليها خشية علي بابا

على كنوزه المخبئة في المغارة المسحورة، فبت أساعدها على شبك حمالة صدرها، وأسوي لها أطراف ثوبها عندما تشرع في ارتداء ملابسها، ونحن نعود إلى الزمن الزائف المعتاد. كنت أحب تمسيد شعرها المنساب كخيمة سوداء على رأسها، لما تأخذ في جدله من جديد، تلك الجدائل الناعمة الجميلة، وأظن أن ذلك كان هو الشيء الوحيد الأرقى والأميز لتلك المرأة، ونقطة التفوق الوحيدة التي سجلتها صهباء ضد زوجتي الراحلة، ذات الشعر الجعد الخفيف الذي كافح مصفف شعرها طويلاً بكل ما يملك من مهارات، ليصنع منه شيئاً يستوجب التقدير دون جدوى.

كانت صهبا عندما تشرع في جدل ضفائرها، تجعلني أدرك للتو أنها غادرت مدارنا المشترك بالكامل، ودخلت مدارها المعتاد؛ إذ إنها سرعان ما تشرع في كلام من نوع – البنت سعاد بنتي خطبوها من يومين. أبوها راضٍ وأنا رافضة. الشاب وأهله يشتغلون في الحشيش.

تقول ذلك ببساطة تدفع الخوف إلى نفسي، فهي تتحدث عن عريس

لابنتها يتاجر في المخدرات وكأنها تحلب شاة من شياهها. كنت أرتبك جداً عندما تأخذ في كلام من هذا النوع، أو عندما تقول:

ـ غبت عنك أسبوعاً لأنهم تاووا ابن بكري التهامي جارنا من كم يوم بعد ما طخوه، لأنه رفض يدفع الألف جنيه السلفة لواحد غنام، ولزم حضوري بالنجع الوقت كله.

خلال ذلك كنت أرتبك وأخطئ في تزرير قميصي، أو إدخال قدمي في فردة الجورب، بينما هي تواصل كلامها منتقلة من موضوع إلى آخر تقول:

ـ جزينا صوف واحد وعشرين خروفاً امبارح.

عبد العزيز الجزاز امتنع عن حقه في الفلوس، وكمل من جيبه، وشال نعجة فطيم. ناوية أغزل حرامين وحمل أنا والبنات. لو تريد أعطيك حرام مخاوي لحرام عمتي نخلة المعمول من صوف الغنم الأفرنجي الشقراء، ولونه بلون الشهد الصافي.

❋❋❋

تواترت الأحداث في حياتي كمراجيح دوارة في ملاءٍ، فقد أخذت في اعتزال العزلة التي فرضتها على نفسي بعد وفاة زوجتي زمناً طويلاً، وصرت أزور إخوتي وأخواتي مرة أخرى. بعضهم شعر بما طرأ عليّ من تغيير، فحالة المرح البادية على تصرفاتي وشرائي ملابس جديدة بدلاً من القديمة التي بقيت أرتديها سنوات، لم تخف عليهم، وبدأت أتعرض لهمساتهم وتعليقاتهم وإشاراتهم المرمزة بأنه لا بد أن تكون في حياتي امرأة جديدة.

بالطبع لم يكونوا على علم بأي شيء يتعلق بصهبا، فقد كنت حريصاً على ألا يعرفوا عن علاقتي بها؛ حتى لا أثير استنكارهم وسخطهم، لأن صهبا بالنسبة إليهم خارج حدود التصور، بل هي لابد أن تكون من وجهة نظرهم عاراً يلطخ تاريخ الأسرة المجيد، أو تاريخ تلك العائلة المدينية التي أنتمي إليها، والتي ما عمل فرد فيها بالرعي أو الفلاحة أبداً. والحقيقة أن رغبتي في التغيير لم تطل ملابسي قط، بل إنني انتويت دهان حيطان شقتي بطلاء جديد، وتجديد المحل أيضاً؛ الفلوس المتراكمة في خزانتي والناتجة عن

شطارة صهبا في تربية وبيع الخرفان، لم تكن لدي خطة أو أهداف واضحة تتعلق بما يمكن أن أفعله بها، والمحل منذ أن كان مملوكاً لأبي، لم تمس جدرانه فرشاة دهان. ولم تتغير محتوياته قط، كما أن رفوفه الخشبية باتت عجوزاً كئيبة، وفي حاجة إلى معالجة وتوضيب. قلت لنفسي: وماله يا ولد. حط قرشين في تجديد المحل وخل وضعه أفضل. وقد وافق على ذلك حسن الثاني من فوره وأضاف: جدده فوراً؛ فهو الآن مكانك الذي تعيش فيه أجمل أوقاتك، بل إن الجزء الداخلي منه صار أكثر من غرفة نوم. اتكل على الله وجدد حتى من باب دفع الملل والتسلية، وتضييع الوقت في شيء نافع لا خسارة فيه.

كانت الفكرة قد انتعشت في رأسي بالفعل، لكن قبل أن أشرع في تحويلها إلى إجراءات عملية، فأتفق مع نقاش ونجار وكهربائي، لأن كهربة المحل كانت في حاجة إلى إصلاح وتغيير أيضاً، كان القدر أسرع مني، فذات ظهيرة، وبعد انصراف صهبا التي كانت قد أشعلت مصابيح جسدي بنور صاخب عظيم، جاءني رجلان، بدوا

لي للوهلة الأولى وكأنهما من موظفي مصلحة الضرائب؛ إذ راحا يسألانني عن ربحية المحل، والوقت الذي أمضيه في العمل به، حمدت الله على أنني لم أشرع في عملية التجديد، وهمس لي حسن الأول: "مائة مرة قلت لك خذ برأيي، ولا تسأل حسن الثاني المتهور المجنون". "إياك أن تدق مسمار خردة في الدكان. ابعد عن الضرائب ومشاكلها، وخليك في سياسة أبيك، واترك المحل مهملاً سيء المظهر حتى لا تطمع فيك مصلحة الضرائب وموظفوها؛ فهم يتذرعون بالشكليات والمظاهر في الحكم على المردود والربح للمحلات التجارية.

لكن الرجلين خيبا رأي حسن الثالث سريعاً؛ فقد عرفا شخصيتهما إليّ سريعاً كمسئولين في شركة ساعات شهيرة، وعرضا عليّ أن أحصل على امتياز توكيل الشركة؛ لأن محلي واسع وموقعه ممتاز وملائم لنشاط من هذا النوع، وخبرتي بالساعات رجحت اختيارهما لي، فوجئت من خلال كلامي معهما بأنهما على دراية كاملة بأحوال المحل، وأنهما ظلا يراقبانني عن بعد طوال الأشهر

المنصرمة، وأنهما مدركان جيداً لظروف عملي، ثم إنهما أشارا إلى أن من مميزات المحل وجوده في موقع تجاري؛ فأمامه مباشرة وعلى الرصيف المقابل بالشارع محل مأكولات سريعة لشركة أمريكية معروفة في هذا المجال، ولا ينقطع الناس عن الأكل فيه، والشارع كله يعج بالمحلات، والرِجل فيه لا تنقطع أبداً.

ثم إنهما راحا يعددان لي مميزات الوكالة، والدخل الكبير الناتج عنها، والذي لا يمكن مقارنته بدخلي الناتج عن تصليح الساعات، وختما الزيارة بقولهما إنه يتوجب عليّ التفكير جيداً في الأمر قبل إبرام العقد؛ لأنه سيرتب شروطاً جزائية قوية ضدي في حالة إخلالي بأي شرط من شروطه، وأن الوكالة سوف تغير حياتي كلها، وتدفع بمستقبلي في اتجاه مختلف كلياً، سوف أجني نتاجه بعد عمل الوكالة بوقت غير طويل، خصوصاً وأن الناس باتت تفضل شراء الساعات الجديدة دوماً، ولا تهتم بإصلاح الساعات القديمة، وأضافا: إن العرض ربما كان فرصة نادرة لن تتكرر بعد ذلك، وفي النهاية تركاني بعد أن رفضا شرب شاي أو قهوة أو أي شيء غير

الماء على أن يعودا للقائي بالمحل بعد أسبوع في حالة موافقتي المبدئية على المشاركة، وإبلاغي لهما ذلك تليفونياً، سواء من خلال المحمول أو غير المحمول.

أعترف أنني صرت قلقاً متوتراً، لا أستطيع التفكير أو النوم لعدة أيام بعد هذه الزيارة. كنت في حالة توتر واستثارة غريبة لم تداخلني من قبل أبداً، وشعرت وكأنني شخص مهم وخطير جداً. صهبا نفسها لاحظت توتري، وتواصلت معها وكأنني أؤدي واجباً تجاه زوجتي، وبدت قلقة بعض الشيء، وقد ظنت أن مشاعري تجاهها فترت. حاولت أن تفهم، لكني طمأنتها، ودون أن أحكي لها عن زيارة الرجلين، وقلت لها إن هناك بعض المشاكل بيني وبين إخوتي؛ بسبب أمور تتعلق بالمنزل القديم الذي تركه أبي لنا، وما زال بعضهم يسكن فيه. كنت خائفاً كفأر عجوز عرض قط عليه مشاركته في جحره. قلت لنفسي في البداية: لا، لا يمكن أن أفعل ذلك أبداً؛ فالمحل محلي وحدي، وهو جزء من طفولتي وصباي، وقد اختصني أبي به عندما كبرت دون إخوتي جميعاً؛ بعدما لاحظ

ولعي بالساعات، وفضولي المتزايد في اكتشاف أسرارها الدقيقة، فراح يدفعني لتعلم مهنته ومعرفة دقائقها، والتي كان قد تعلمها بدورها على يد ساعاتي أرمني عجوز بالعتبة، عمل عنده مدة من الزمن، واشتهر ليس فقط بحذقه في إصلاح الساعات، ومعالجة أعطالها المتباينة، ولكن بتجميعه قطعاً دقيقة منها كان يجلبها من الخارج، ويصنع منها ساعات نادرة ذات أشكال فريدة مميزة بعد ترصيعها بالأحجار الثمينة، وبعض من الذهب والفضة.

ومنذ صباي الأول، أدرك والدي بخبرته أنني لن أفلح في المدارس والتعليم؛ فسقاني وأطعمني ما هضمه من فن العمل في الساعات، ولم أخيب ظنه فرسبت في الثانوية العامة مرتين، وفي المرة الثالثة دخلت الجامعة بعد نجاحي بمجموعة ضعيف، فألقوا بي إلى دراسة الفلسفة، وكثيراً ما اندهشت من ذلك؛ إذ كنت أتصور أن دراسة الفلسفة لابد أن تكون للنابهين الحاصلين على أعلى درجات التحصيل الدراسي.

بعد عام واحد فقط في الجامعة، أدركت أنني مهموم بفلسفة الساعات أكثر من اهتمامي بفلسفة أرسطو وسيبنوزا وديكارت؛ إذ إنني كنت أفضّل قضاء معظم يومي إلى جانب أبي في المحل دون الذهاب إلى الجامعة، وحضور المحاضرات الفلسفية أصابني بملل هائل، ورغبة لا تقاوم في النوم أثناءها، وهكذا ودعت الجامعة والتعليم كله إلى الأبد، دون مقاومة تذكر من أبي الذي بدأت تداهمه الشيخوخة، وينهكه المرض؛ فرحب بانخراطي في العمل بسلك المعدات الزمنية الدقيقة، ووراثة مهنته الأثيرة التي لم يُقبل عليها أحد من إخوتي أبداً.

حسن الأول، يتبعه الثالث كما هي العادة، لخص وجهة نظره بعبارة "ابعد عن الشر وغن له". حسن الثاني ابتسم ساخراً منهما قال: "لا فائدة. الجبن والخوف شعاركما إلى الأبد". ثم أضاف "مظهر الرجلين كان شديد الاحترام ويدفع إلى الثقة. ملابسهما أنيقة جداً، ويفوح منهما عطر رجولي جميل، وشعرهما مرتب ولامع، أما كلامهما معك فواضح تماماً: لن يكلفك مليماً واحداً، والتوكيل

سيكون نقلة حقيقية في حياتك. أتذكر صفقة الخرفان؟ أتذكر كم كنت خائفاً وقتها؟ لكن ما الذي حدث بعد ذلك؟". ابتسمت دون أن أدري لكلامه معنى، وتذكرت الخرفان وصهبا فرحت أهرش فخذي بيدي على نحو لا إرادي، وكنت خلال ذلك كما يقول المثل "عين في الجنة وعين في النار"، وكلما تأملت عرضهما المغري قلت لنفسي: انظر حولك يا ولد. ساير الزمن والوقت. الناس كلها حياتها تغيرت، ولا شيء ظل على حاله. الحاج سند صاحب أشهر محل منيفاتورة في الحدائق كلها، باع محله، برغم أنه كان ميسوراً وصاحب بيوت وعمارات ولا ينقصه شيء. ناس قالت إنه قبض مليوني جنيه من شركة الملابس الجاهزة الإيطالية؛ نظير تنازله لها عن المحل، مطعم الوجبات الجاهزة السريعة المقابل لمحلك على الجانب الآخر من الشارع، ألم يكن في الأصل شقة طنط نجية الله يرحمها؟ طنط نجية صاحبة أمك وأبيك والتي كان الخلبوص – رحمه الله – يموت في دباديبها خصوصاً عندما كانت تخرج إلى البلكونة وتنشر الغسيل على الحبال بيديها المربربتين البيضاوين الشبيهتين بالقلل

القناوي، والبارزتين دوماً من جلاليبها القطن الخفيفة ذات أنصاف الأكمام. ألا تذكر كيف كان أبوك يخرج لينظف زجاج واجهة المحل دون ضرورة، وينظر إليها متلصصاً؟ أنسيت يا ولد ذلك البيت الجميل القديم المعلقة على بابه الحديدي المشغول وبالقرب من بلكونة طنط نجية في الدور الأول يافطة نحاسية دون عليها بخط جميل: أنشئت سنة ١٩٢٢، إلى جانب اسم المعماري الفرنسي الذي بنى العمارة؟

تنهدت وأنا أتذكر كل ذلك، وفتنة الجهنمية ذات اللون الأحمر الناري، المستلقية بإغواء على سور العمارة الحديدي، والتي لا تقل فتنتها عن فتنة طنط نجية بشعرها القصير المموج داخل الشبكة الحرير الحافظة له من الهواء، وقرطها الذهبي أبو زمردة صغيرة يتدلى من أذنيها، بينما تناديني من البلكونة وترجوني أن أذهب لأشتري لها أرغفة ساخنة من الفرن القريب أو "والنبي يا حسونة يا حبيبي لو عَدَّى بياع الليمون، هات لطنطك نجية منه بخمسة

تعريفة ونقيه حلو. تكون فيه مياه؛ لأني سمعت الأذان وداخلة أخطف صلاة الظهر".

ترحمت على طنط نجية وأنا أتذكر كل ذلك، وأتأمل- بينما أجلس في المحل- واجهة محل الوجبات السريعة، وقد تغطت ببلاطات عريضة من السيراميك ذي اللون الأحمر البذيء، وهؤلاء الداخلون الخارجون من المحل، وهتفت لنفسي؛ كل شيء صار مبتذلاً الآن، وعلى نحو لا يمكن تصديقه. حتى الأكل بات أمراً مبتذلاً، فما المغري في أكل فراخ بلا طعم ولا نكهة، وكأنها جثث قديمة محنطة، ولكن سرعان ما وجدتني أحاول الإجابة على سؤالي بنفسي: إنه الجديد يا ولد. إغواء الجديد. أولم تقرأ أبداً تلك العبارة القديمة المحفورة على ضريح سيدي القواس، الذي كنت تزوره مع أبيك، والتي حفظتها عن ظهر قلب: "بالتزيين ضل مَنْ ضل"؟. ألا تعرف أن الناس كلها الآن أكلت الدعاية وإعلانات التليفزيون رؤوسها، وفعلت فيها ما فعلته عصا موسى بثعابين السحرة كلهم؟

***

زفرت بحرارة وأنا أتذكر أيام طنط نجية وعالم صباي الأول. كان أولادها قد باعوا الشقة الفسيحة بعد وفاة أبيهم ووفاتها بعد ذلك، لشركة مطاعم الوجبات السريعة، وهي شركة عالمية، انتشرت فروعها انتشار النار في الهشيم في جميع أنحاء البلاد. أصغر أبنائها خليل الذي كان صديقي منذ الطفولة، لحق بأخويه مهاجراً إلى كندا، برغم إصراره ولسنوات طويلة على عدم السفر وترك البلاد، ولكن الشديد القوي – كما قال قبل سفره – هو الذي أجهز على كل رهاناته على تغيير الأوضاع، وجعله يكره البلد وعيشتها؛ فهو كان مهندساً، حارب بعد تخرجه وتجنيده الإجباري في حرب سنة ١٩٧٣، لكنهم عاكسوه في المصانع الحربية وأصيب بالإحباط، ولم يجد في النهاية إلا الرضوخ لإلحاح أخويه الّذين سبقاه بالهجرة، وقبل أن يسافر قال لي عندما جاء ليودعني بالمحل: "كنت راضياً بالمرتب الضعيف وشروط العمل الصعبة، وكنت أقول لنفسي: وماله يا ولد. مصر بلدك. اصبر وتحمل.. لكن عمرك شفت يا حسن مصانع حربية كانت تعمل صواريخ حولت إنتاجها وصارت

تصنع شوكاً وسكاكين؟! تخصصي يا حسن هو هندسة الصواريخ. دماغي مبرمجة على الصواريخ، وكان حلمي تطوير صاروخ عملوه زمان، اسمه القاهر. لكن سنة وراء سنة اكتشفت أني واهم، وقعدت بلا شغلة ولا مشغلة. يعني أصحبت عاطلاً عن العمل وأحصل على مرتب كل شهر. وجدت نفسي كالمطرود ضمنياً، قلت: لا.. مطرد وأنا في بلدي مستحيل. الأفضل أن أسافر وأكون مطروداً بعيداً عنها".

ابن طنط نجية سافر إلى كندا، وأرسل لي بعد فترة من سفره خطاباً عرفت منه أنه اشتغل كخبير في مصنع سلاح هناك. أظن أنه ربما ابتكر سلاحاً قد يكون تم استخدامه لضرب العرب في لبنان أو العراق، ولم لا؟ اقترح حسن الأول أن أستشير إخوتي قبل الإقدام على أي تصرف في موضوع التوكيل "فالشورى لن تخسرك شيئاً يا رجل". وافقت على فكرة الأول الوجيهة تماماً، وقررت الذهاب إلى أخي الأكبر بعد انتهاء عملي في المحل مساء. حسن الثاني لم يسكت؛ إذ بينما كنت على وشك التلويح لسيارة أجرة لأستقلها إلى بيت أخي

في باب الخلق، صاح فجأة: "لو فاتحت أخاك الكبير أو أي واحد من إخوتك وأخواتك فلن تعرض نفسك إلا للسخرية واللوم، ولسوف تصبح مادة وموضوعاً طوال عدة أيام يتناقشون فيها، ويؤكدون نظريتهم المزمنة بخصوصك وهي أنك فاشل من يومك، ونقطة الضعف الأساسية في العائلة. سيفتحون ملف تاريخك كله: تبولك في الفراش حتى سن الثالثة عشرة، رسوبك مرتين في مادة اللغة الإنجليزية وأنت في المرحلة الإعدادية، فقدانك للخمسين جنيهاً، قسط الجمعية الشهري مع طنط نجية، ثم فشلك الدراسي المستمر الذي توج بخروجك نهائياً من الجامعة دون الحصول على شهادة جامعية. أنت فاشل من وجهة نظرهم. طوال عمرك وإلى أبد الآبدين، حتى بعد أن تكبر في العمر وتكركب، حتى لو طلعت لك الأسنان الخضر، إياك أن تذهب وتأخذ رأي أي واحد منهم في مسألة التوكيل. أخوك الكبير سوف يضع ساقاً على ساق وينظر إليك متأففاً، ثم يقول لك ما يقوله عادة في مناسبات من هذا النوع: "يعني يا حسن لو سمعت كلام أخيك الكبير، وواصلت دراستك

في الجامعة، وحصّلت شهادتك، كانت أمورك قد تغيرت بالكامل. كان زمانك قد أصبحت موظفاً كبيراً بالدولة، أو كنت قد اشتغلت في مدرسة وكسبت الذهب من الدروس الخصوصية، أو سافرت إلى بلد من بلاد النفط وكومت الفلوس. توكيل يا حسن، وأنت لا تملك من الدنيا غير شهادة الثانوية العامة وشهادة ميلادك؟ لا يا حبيبي. خليك في شغلك وإياك أن تفرّط في المحل؛ لأنه يعتبر كل رأسمالك، وأكل عيشك من ورائه ولو ضاع منك – لا قدر الله – لأي سبب من الأسباب فستكون قد خسرت فعلاً: الجلد والسقط.

"هذه الأسطوانة ستسمعها يا ولد. فجميع إخوتك وخصوصاً الكبير – لا يملون أبداً من تكرارها بمناسبة وبدون مناسبة، وقولها بألف طريقة وطريقة. حتى في مشكلة إنجاب الأطفال، وهي مسألة لا دخل لك فيها، يعتبرونك فاشلاً بسببها. في نظرهم أنت فاشل في كل شيء. ثم.. هل أخذت رأيهم في شراء الخرفان، أو تربيتها بعد ذلك عند صهبا؟ لا.. إياك أن تفاتحهم في مشروع التوكيل. وإياك أن تمشي وراء كلام حسن الأول، الخواف، الجبان، ولا تعطه أذنيك

أبداً، لأنه باصص لتحت طوال الوقت، ومرعوب من رفع عينيه لفوق وشوفة الدنيا".

وهكذا.. وبعد أن أنهى حسن الثاني خطبته النارية التي زلزلت كياني، وجدتني أغير مساري عابراً الشارع؛ لأسير على الرصيف في الاتجاه المعاكس نحو بيتي، بينما حسن الأول والثالث يشهقان تعجباً من تذبذبي وعدم ثباتي على قرار، والعمل بنصيحتهما في استشارة إخوتي. واصلت سيري دون أن أعيرهما اهتماماً، وكنت منشغلاً بالتفكير فيما قاله حسن الثاني؛ فقد قلب المواجع بداخلي، ونكأ جراحاً قديمة، وجعلني أفتح خلال هذه اللحظات ملف العلاقة التاريخية بيني وبين إخوتي جميعاً؛ فهم أشعروني دائماً أنني غريب عنهم، ولست شقيقاً لهم خرج من البطن ذاتها التي خرجوا منها، ويحمل اسم الأب نفسه الذي يحملونه. كنت حانقاً عليهم وأنا أتذكر كيف أنهم اعتبروني دائماً كائناً غريب الأطوار؛ لأن طباعي وسلوكي تختلف في تفاصيل كثيرة عن طباعهم وسلوكهم. تذكرت تعاليهم الدائم وشعورهم المستمر بالتفوق عليّ، حتى أخي الصغير

برغم وظيفته المتواضعة كمحاسب في التليفزيون، إلا أنه يعاملني وكأنني خبير خيبة، خصوصاً بعد أن تزوج من ممثلة إعلانات ناشئة، تدر على بيته دخلاً شهرياً يفوق أضعاف مرتبه في شهر واحد، واستطاع الحصول على شقة واسعة تملكها في إحدى المدن الجديدة التي انتشرت كنتوء عشوائي، على امتدد الصحراء المحيطة بالمدينة.

"اخرس يا حسن الأول أنت ويا الثالث. لا لن أذهب إلى إخوتي أبداً، حتى لو فشل مشروع التوكيل، وخسرت فيه كل ما أملك، وكل ما ورائي وما قدامي فلن أذهب".

ظللت أحادثهما طوال الطريق وأنا في حالة من الغضب والانفعال والضيق من إخوتي، ولم أستشعر مرور الوقت، ولا ما يدور حولي في الشارع، حتى صرت على عتبة باب العمارة التي أسكن فيها، وما إن هممت بالدخول من الباب الحديدي القديم الذي تتوسطه الخنفستان الضخمتان المصنوعتان من النحاس، حتى نادت علي "الحاجة عديلة" ساكنة الطابق الأرضي، من شباك شقتها وهي

تصيح بصوتها المرتعش الشبيه بصوت صفارة منقوعة في المياه:

ـ يا حشن. يا حشن. تعال والنبي عاوزاك.

صعدت الدرجات الست المؤدية إلى شقتها متكاسلاً؛ إذ لم أكن متحمساً للقاء أي إنسان أو الكلام مع أحد. وما إن وصلت عند بابها حتى وجدتها أمامي ترحب بي وتقول بحماسته المعهودة:

ـ اتفضل يا حشن.. ادخل. واحشني خالش يا حشن يابني.

دخلت وجلست على الكنبة الإسلامبولي المحشورة في صالة الشقة الضيقة بين طاقم أسيوطي الذي تستخدمه الحاجة كصالون تستقبل فيه ضيوفها وزوارها، وما إن جلست حتى بادرتني:

ـ أنت مختفٍ خالص من مدة يا حشن. سألت عليك أم فهيم البوابة، قالت إنك مقصور عن الجيران كلهم، ومن البيت للمحل، ومن المحل للبيت. خير يا حشن. يظهر أنك مشغول خالص، حتى كنت ترن الجرس في روحتك وتطل عليّ وتقول: عاوزة حاجة يا حاجة.. هو جرى للدنيا حاجة يا أولاد، ولا أنت صرت مشغولاً لحد إنك مصهين عن أمك الحاجة.

أشعرتني كلماتها بتأنيب ضمير حقيقي، وداخلني خجل منها؛ فهذه المرأة الجارة، كانت لي بمثابة أم أخرى بالفعل، وكانت زوجتي الراحلة تحبها وتثق فيها وتودعها كل أسرارها، خصوصاً بعد أن تزوجت ابنتها الوحيدة وأصرت هي على أن تعيش بمفردها، ولا تترك بيتها لتعيش معها في منزل الزوجية الجديد، وكانت فلسفتها في ذلك بسيطة وواضحة "في بيتي معززة مكرمة. ملكة نفسي ومعاش المرحوم أبو بنتي مكفيني وحب الناس كفاية لي". وبالفعل هي محبوبة من جميع سكان العمارة، ولها أساليب وطرق متباينة لاكتساب محبتهم ومودتهم، منها تلك الطريقة، إذ قالت لي بحماسة وجدية شديدتين بينما أجلس أمامها:

ـ عندي بن محوج جبته الصبح من عند عزيز البنان. اشرب وياي حبة قهوة يعدلوا دماغك قبل ما تطلع لشقتك، وأشوف لك بعدها الفنجان.

كنت في حاجة لمن يفعل أي شيء لأجل دماغي هذا، المرهق لكثرة التفكير في حكاية صهبا والخرفان، وأخيراً مسألة التوكيل

وهواجسه، ثم التاريخ المؤلم لعلاقتي بإخوتي وأخواتي. وافقت على فكرة القهوة دون تردد، بينما رحت أتابع ببصري ساعة الحائط القديمة المعلقة أعلى الكنبة الأسيوطي، والتي كنت أصلحتها للحاجة منذ فترة دون مقابل، وعلى سبيل المجاملة. سألتها وأنا أتأمل النقوش المحفورة على صندوقها الجوزي الجميل:

ـ هي الساعة ماشية معاكي ولا فوتت من جديد؟

ردت عليّ من المطبخ، الذي لا يبعد مكانه عن صالة الضيوف إلا خطوات قليلة، وقالت، وكنت أراها من مكاني واقفة أمام الموقد تشرع في إعداد القهوة التي آمل أن تعدل أحوال دماغي:

ـ لا والله يا حشن. يدك فيها البركة ولو عليّ أحطها في حرير. من يوم ما أخذتها من عندك في المحل وضبطتها؛ وهي ماشية آخر تمام. لا دقيقة زيادة لقدام، ولا ثانية ناقصة لورا. أنت لما صلحتها عملت في أمك الحاجة المعروف الكبير؛ لأن ساعة يدي قدمت. وأرقامها صارت صعبة على نظري. نظري ضعف جداً يا حشن، والدكتور قال لازمك نظارة.

ـ آه. اعمليها بسرعة تنفعك. قلت.

ـ ناوية أعملها إن شاء الله لما أقبض جمعية مدام عايدة بعد شهرين.

ـ عايدة أم الدكتور فادي.

ـ لا عايدة عبد السميع. مدرسة العميان. أصلها عاملة جمعية بألف جنيه. عشرة أنفار. كل نفر بمائة في الشهر. دخلت بخمسين على قدي. ناوية أعمل منهم النضارة، والباقي أشتري به قماش كريتون من وكالة البلح؛ لأن كسوة الكنبة الإسلامبولي والطاقم الأسيوطي نعمت خالص وغسلة والثانية تروح. أصله سترة ومستحمل، جامد ويعيش.

ثم إنها عادت بصينية القهوة القديمة ذات الإطار الحديدي، والمصنوعة من الصيني الأبيض المطبوع عليه أوراق شاي بالأزرق والبني الفاتح، والتي لم أعد أرى نوعها في أي مكان آخر إلا عند الحاجة عديلة. قلت لها بينما كنت أرتشف القهوة بتلذذ، وأزفر بعضاً من دخان كثيف يعبئ صدري خلال هذه اللحظات:

ـ الحقيقة. عاوزك تشوفي لي الفنجان يا حاجة.

كانت الحاجة عديلة مشهورة في العمارة، ولدى بعض الناس في الحي، بقراءة الفنجان. كثيرون كانوا يعتقدون فيما تقوله، ويصدقون نبوءاتها لهم، حتى أنهم أدمنوا قراءتها لفناجين قهوتهم، وصاروا يقدمون لها هدايا مقابل ذلك؛ لأنها كانت ترفض تعاطي الفلوس، وتقول إنها إنما تفعل ذلك لوجه الله فقط لا غير. بالنسبة إليّ، لم يكن الأمر – من وجهة نظري – إلا نوعاً من المزاح الظريف، والتسلية، وتزجية الوقت، ولم آخذ الأمر مأخذ الجد أبداً؛ فهي لم تستقرئ شيئاً في الفنجان وثبتت صحته بالنسبة إليّ في أية مرة من المرات التي شربت فيها قهوة معها، سواء في شقتها أو في شقتنا أيام حياة زوجتي الراحلة.

لكن في هذه المرة، وبينما كنت أجلس أمامها الآن، تداخلني رغبة عارمة في أن أسمعها تقرأ طالعي، وتقول شيئاً عن أحوالي ربما أصدقه، وكأن ما سوف تقوله، سيساعدني على اتخاذ قراري وتوجيهي جهة السلامة التي لا خوف منها ولا ضرر فيها؛ فأنا في لحظة تقرير مصير، أكون معها أو لا أكون، تصيب حياتي فيها أو

تخيب؛ فمسألة التوكيل هي طريق لا أعرف إلى أين سوف تقودني خطاي فيه: سكة السلامة والنجاح، أم سكة الندامة والفشل؟ انتهيت بسرعة من ارتشاف ما تبقى في فنجاني، ورحت أثبت طبقه الصيني الصغير على الحافة المستديرة للفنجان، ثم قلبتهما معاً. مرت لحظات، تريثت خلالها الحاجة عديلة، قبل أن ترفع الفنجان بيديها لتضمن تسربل جدرانه الداخلية باللون البني المر. حدقت عديلة بالفنجان وهي ترمش بعينيها الشبيهتين بعينين قطة على وشك الهجوم على فريسة، ثم قالت دون أن ترفع رأسها أو تنظر تجاهي بأية نظرات:

ـ بسم الله ما شاء الله. فنجانك حلو خالص. وكله خير.

ـ يا سلام. قلت.

ـ والله. شوف. عندك ناس غريبة عنك عازوة تحط إيدها في إيدك. واحد أو اثنين. بص.

اقتربت مني بالفنجان وهي تشير بسبابة متغضنة أشبه بذيل سلحفاة إلى بعض البقع البنية المترسبة على جدران الفنجان. تمعنت جيداً فيما

تشير إليه داخل القدح الصغير المزين خارجه برسوم لروميو وجولييت، لكني لم أجد أي واحد أو اثنين أو حتى شبح يمكن أن يقتنصه البصر أو يرسمه الخيال. في الحقيقة – وبرغم نيتي الصادقة في العثور على شيء – وجدت بقعاً بنية فقط وصفوة ما شربت، فلم أرد، لكنها واصلت.

ـ والله راجل طويل والثاني أقصر منه حبتين، كما لو كانا رجلاً وابنه أو أخاً وأخاه.

كنت أعرف أن لعبتها سوف تؤول إلى ذلك؛ فهي تعاود التلميح إلى موضوعها الأثير الذي لا تمل الكلام عنه معي أبداً، وهو مسألة زواجي مرة أخرى؛ فلقد رشحت لي وبعد وفاة زوجتي بفترة قصيرة أكثر من امرأة وفتاة من معارفها؛ تكون إحداهن عوضاً لي عن زوجتي المتوفاة، وها هي تلمح الآن للموضوع وتقول:

ـ مادين لك يديهما وعاوزين يحطوها في يدك.

ـ آه. قلت وأنا أبتسم.

ـ وبص يا حسن قناطير خير هالّة في رجلين الرجلين، وفيه واحدة

واقفة تبص. واحدة ثوبها غير ثوبك يا حسن. وأنت مهموم أزيد من اللازم يا حسن. وجواك ياما. صدرك مدخن. برغم إنك قاعد ومتربع وفوقك ساعة كبيرة حلوة. لا يا حسن. حاسب على نفسك وارمِ الدنيا كلها وراء ظهرك. كله في الآخر محصل بعضه، ولا شيء يستحق الزعل والقهر.

ثم إنها دققت طويلاً في الفنجان وشهقت قبل أن تقول:

ـ يا خبر يا حسن. شوف.. شوف. عندك ديابة جارية ورا معيز أو خرفان وأنت في وسطهم. لا إله إلا الله.

ـ وما معنى ذلك يا حاجة؟

ـ خير إن شاء الله. لكن خلِّ بالك من نفسك وخلِّ خطوتك من جواك. الدنيا تيارها جارف وأولاد الحرام ما خلوا أي شيء لأولاد الحلال. اسمع يا حسن. روح جامع سيدي الرفاعي. فك عن نفسك واكتب له جواب وفضفض فيه بكل ما في دواخلك. قل له عن متاعبك وهمومك وهو يسعى لك، حط مكتوبك عند المقام واتركه وإن شاء الله يرد لك الجواب، ويريح قلبك وينولك مرادك.

تركتها وصعدت إلى شقتي في الدور الرابع. خلعت هدومي ولبست بيجامة النوم، ثم أحضرت جبناً وزيتوناً من الثلاجة؛ وجلست لأتعشى أمام التليفزيون، فكان فيلم "دعاء الكروان" قد بدأ، فرحت أتابعه بشغف؛ فأنا لا أمل من مشاهدته كلما عرض في التليفزيون. وبينما كان أحمد مظهر قد بدأ في إغواء هنادي غفوت وأنا ممدد على كنبة الأنتريه المريحة والأثيرة لدي دون سائر أثاث البيت، وفي غفوتي حلمت بأنني أرتدي ملابس المهرجين ذات الألوان العديدة الفاقعة، وأسير خلف قطيع من الأغنام، وفجأة ظهر رجلا التوكيل بالمكان، كان الأول يحمل زمارة طويلة كالمستخدمة في الموالد عادة، والثاني يعلق على صدره طبلة ضخمة يدل عليها بعصا كبيرة. وما إن شرعا في الزمر والطبل، إلا وكان القطيع كله قد أخذ في التقافز هنا وهناك والتناطح بالقرون والثغاء بصوت عال، أما أنا فلم أتمالك نفسي ورحت أتراقص حيناً كراقصة محترفة في ملهى رخيص، وأتشقلب وأنط حيناً كمهرج في سيرك، وفي النهاية أخذت في خلع ملابسي قطعة قطعة، لكني ما إن

بدأت في خلع سروالي الداخلي حتى وجدتني أفيق مرة أخرى، بينما كانت هنادي تصوب بندقيتها تجاه أحمد مظهر لتقتله. قمت منزعجاً وتوجهت إلى المطبخ لأشرب كوباً من الماء، وسحبت نفسي إلى السرير لأنام. لكنني بقيت حيناً مؤرقاً أفكر محدقاً في السقف، قبل أن تنزل عيناي ستائرهما وأنام.

مر أسبوع من المد والجزر، والأخذ والعطاء بين حسن الأول وذيله حسن الثالث من ناحية، وحسن الثاني من ناحية ثانية. وتخللت ذلك اشتباكات دامية ودموع وصراخ، لكن حسن الثاني – وكعادته دائماً – نجح في هزيمتهما بالضربة القاضية، وتركهما مكومين أرضاً مضرجين في دمائهما، بينما وقف إلى جوارهما راسماً علامة النصر بإصبعيه وهو يرفع عقيرته صائحاً: "عاشت التجربة، عاشت المغامرة. عاشت المقامرة. يحيا التغيير.. يحيا التطوير.. طوبى للعصر الجديد.. طوبى للمختلف، وتباً للقديم".

قلت لنفسي: من لا يساير حركة الدنيا بالفعل فسوف تدور عقاربها، وتتركه في مكانه وحيداً، ومن لا يساير سنة التطور فذنبه

على جنبه، ثم كن واقعياً يا ولد، وانظر حولك وكف عن الخوف والتلكؤ. اعمل خطوة محسوبة وروح لمحامٍ شاطر واسأله، خليه يحط لك ضمانات، ويجعلك واثقاً من أن المحل لا يمكن أن يضيع منك. قضيت عمرك كله في الساعات وتصليح الساعات، الآن جرب حكاية التوكيل مثلما جربت تجارة الخرفان ولم تخسر شيئاً.. اتكل على الله وامشِ في سكة التوكيل.

***

جرى العمل في تغيير المحل على نحو سريع لم أتوقعه أبداً؛ بعد أن حسم حسن الثاني الموقف واتخذ القرار. وبرغم أن شعوري خلال ذلك هو أن الأمر أفلت من يدي، وأنني صرت كمن يسير على أرض زلقة، ويوشك على السقوط في أية لحظة، لم أستطع الرجوع عن الأمر أو التقهقر إلى الخلف. فالعقد المبرم بيني وبين شركة الساعات العالمية كان محكماً وكأنه طوق حديدي حول عنقي يصعب الإفلات منه. والحقيقة أنني علمت من شريكيّ أن للشركة فروعاً في كل مكان في بلاد العالم، وتوكيلاتها تحقق أرباحاً هائلاً، ولم

تمر بضعة أيام على توقيع العقد، إلا ووجدتني أَلملم عالمي القديم، وأضعه داخل صناديق كرتونية أعلم جيداً أن التراب سوف يغطيها دوماً، وأن سقيفة بيتي سوف تكون مثواه الأخير، وهكذا رحت أجمع عددي ومفكاتي التي ورثت بعضها عن أبي، وكذا التروس الدقيقة، وأعضاء متباينة، كنت أتفنن في زراعتها بساعات عليلة لتصح وتواصل ضخ الزمن والوقت، كما كومت كل ما لدي من ساعات قديمة كنت أعرضها في المحل لتشي بما لدي من عراقة وقدم في العمل بالساعات، ووضعتها كلها في صندوق صغير، وأخذت كل ذلك إلى البيت. زبائني وعملائي الذين عرفوني طوال سنوات. اعترتهم الدهشة وأنا أرد لهم ساعاتهم دون إصلاح. الشيء الوحيد الذي مزق قلبي بقوة هو إصرار مهندس الديكور على إزالة الستارة الكريتون المشجرة الفاصلة بين الجزء الداخلي والخارجي للمحل، فمع سقوطها واختفائها داخلني شعور حقيقي بأنني أجتاز حداً حقيقياً يفصل بين عالمي القديم الجميل، وبين عالم جديد، مجهول بالنسبة إليَّ وأخافه تماماً، ولا أدري ما سوف يكون

عليه مصيري خلاله. لقد استبدل مهندس الديكور هذا الذي جلبه رجلا الماركة العالمية الستارة بباب منطبق أو "أكورديون يا أستاذ حسن في منتهى الشياكة والجمال"، كما قال الرجل لي، وأضاف: "إن شاء الله نعمله من البلاستيك الشبيه بخشب الأرو الفاخر".

صهبا عندما عادت بعد ذلك ورأت الحركة غير الطبيعية بالمحل – مهندس الديكور وعمال الطلاء والنجارين – بقيت واقفة أمامه فترة مشدوهة، ثم انصرفت بعد أن أشارت لي بيدها أنها سوف تعود مرة أخرى، بعد ما يتم الانتهاء من ذلك كله.

استغرق العمل في تجديد المحل وعمل الديكور حوالي ثلاثة أشهر، ومهندس الديكور أجهز على كل ملمح من ملامح المحل القديم، حتى البلاط الملون المغطي للأرضية، والذي كنت أحب النظر إلى ورداته المتعانقة عند الأركان، والمحاطة بكنار من الزخارف المتداخلة على هيئة حلقات خضراء وصفراء وقرميدية اللون، أمر الرجل عماله بانتزاعها انتزاعاً من مكانها، ووضع مكانها بلاطات مربعة كبيرة من السيراميك الأحمر والأسود اللامع، جعلتني أشعر

بدوران في رأسي ورغبة قوية لإفراغ ما بجوفي بمجرد أن رأيتها. أما الجدران فقد تم تجليدها برخام صناعي أصفر اللون، كما ركّب في السقف الصناعي المسحور والمصنوع من المرايات ما يزيد عن عشرين لمبة كهربائية قوية الإضاءة، أشعرتني وكأنني داخل ملهى ليلية لا ينقصه غير راقصة تتقصع على دقة طبلة وصوت زمارة. الطامة الكبرى بالنسبة إليّ كانت تلك الساعة الذهبية التي أصر رجلا التغيير المدوي على تعليقها على الحائط الأمامي للمحل، والتي أظن أنها لا تناسب إلا الالتفاف حول معصم ديناصور منقرض.

شهقت - رغماً عني - وشريكاي يخبرانني أن عمليات التجديد وعمل الديكور كلفت ما يزيد عن مليون جنيه؛ فقد كنت عازماً على التبرع بمبلغ ثلاثة آلاف جنيه لجمعية خيرية تؤوي اليتامى؛ تيمناً بالتجديدات التي كنت انتويت عملها قبل تغيير مصيري، والدخول في مشروع التوكيل. همس حسن الأول ساخراً: لا.. ولم كل هذه الفنتزة والعنتزة وبعثرة الفلوس؟! وبينما كنت أسير عائداً

إلى منزلي، بعد ذلك وقع بصري على مدرسة حكومية ابتدائية بناؤها متداعٍ، وزجاج فصولها مكسور، فاعتراني خجل وشعور بالإثم، بينما كانت تهب عاصفة أمشيرية هوجاء وتلسع وجهي بأتربتها وريحها الشتوية الباردة.

يوم الافتتاح تلقينا سلالاً كثيرة من الورود والزهور، وجاءنا جميع أصحاب المحلات المجاورة للتهنئة. صاحب محل قطع غيار السيارات اليابانية، وصاحب توكيل البويات الألمانية، وحتى مدير محل الفراخ المشوية المحنطة، ومدير شركة الملابس العالمية جاءوا للتهنئة. الحاج عبد السميع صاحب محل جنة رضوان لعصير القصب، والذي يقع بعد محلين من محلنا المفتتح، قدم رجلاً وأخر رجلاً قبل أن يأتي للتهنئة، وبدا خجلاً بعض الشيء وهو يرتدي جلابيته، ويمد يده السمراء لمصافحتي. خلال ذلك كنت منفعلاً جداً ومنتشياً؛ إذ وجدت كل هذه الأضواء، وقد سلطت عليَّ فجأة؛ فهذا الأمر لم أتصوره خلال حياتي أبداً. حتى إخوتي وأخواتي الذين علموا بالأمر وجاءوا للتهنئة زادوا من شعوري بالنشوة؛ فقد

لاحظت أنهم يعاملونني بطريقة مختلفة وباحترام وإعجاب لم أحظ بهما من قبل.

الأضواء التي سلُطت عليَّ، فاقتها أضواء أخرى حولت مساء الشارع إلى صباح، وكأن شموساً، لا شمساً واحدة قد بزغت فيه فجأة، دون أن يتكلف أي من شريكيّ في ذلك قرشاً واحداً؛ فموظف شركة الكهرباء العمومية الذي جاء أيضاً للتهنئة وساعة التوكيل تحوط معصمه، كان قد غض النظر عن حبال اللمبات الكهربائية الملونة الممتدة من عند المحل وحتى نهاية الشارع، والمتدلية من أسطح عمارة التوكيل والعمارات المجاورة، وتم تمديد التيار لها من كابل عمود الإنارة العمومي. كانت أضواء باهرة ومبهجة حقاً، صنعت جواً مرحاً مع صوت المغني المنبعث من جهاز التسجيل، والذي كان يزعق بأغنية يقول مطلعها: "أس. أس. أس. السلام عليكم".

والحقيقة أنني كنت على مستوى المناسبة؛ فاشتريت ولأول مرة منذ سنوات طويلة بزة جديدة خصيصاً ليوم الافتتاح، لم تكن ذات

تفصيلة تقليدية من ذلك النوع ذي الألوان الداكنة المحافظة، لكنني اخترتها – وقد حاولت تقليد شريكي – بلون الكركم الأصفر وبصفين من الأزرار الذهبية اللامعة ذات الحجم الكبير، وعملت بنصيحة البائعة – وكم كانت لطيفة جداً وهي تبتسم طوال الوقت وتطرقع باللبان – فاخترت قميصاً مشجراً وربطة عنق زرقاء مزينة بنجوم صغيرة حمراء، راحت تساعدني في ربطها، بينما كان صدرها يلامسني بين حين وآخر ملامسة خفيفة جعلتني أنتشي وأستثار قليلاً.

حلاقي الذي أدمنته منذ عدة سنوات، شعرت بصدمته من المتغيرات الجديدة التي ارتأى أنها جذرية، عبر عنها بمجرد أن رآني بقوله: "يا سيدي.. يا عيني.. والله تصابيت يا جميل"، ثم سرعان ما اقترح تغيير ليس فقط تسريحة شعري المفروق من الجنب اليمين، ولكن لونه أيضاً. وهكذا راح يكافح بحماسة بياض المشيب الملازم لرأسي منذ أن تعثرت بقطة سوداء ذات ليلة عند بئر سلم بيتنا عندما كنت في السابعة عشرة من عمري، وقد تسلح بصبغة يابانية وصفها

بأنها "الأولى على مستوى العالم". ولم تمر نصف ساعة وإلا كان سنجاب ذهبي لطيف كالذي رأيته ذات يوم في حديقة الحيوانات، يربض فوق رأسي مسترخياً. حلاقي "سعيد" السعيد كما كنت أحب أن أنعته دوماً. لم يكتف بذلك، بل أدخل تعديلات جغرافية على رأسي كله؛ فنتف وجهي بالفتلة، وقال: "ولم لا؟" لما اعترضت لأن ذلك ما تفعله النساء، وأقنعني أن الفتلة أفضل من الموس؛ لأنها تنزع الشعر من جذوره، وتجعل البشرة ناعمة تماماً. وبالفعل كانت النتيجة خدين حريريين يستحقان قبلات مارلين مونرو نفسها وليس صهباء، وحاجبين رائعين غاية في القوة والتناسق. سعيد السعيد بدا أكثر سعادة وزهواً وهو يرى ثمار مجهوداته ماثلة أمامه في المرأة وهمس بانفعال.

"بسم الله ما شاء الله لون شعرك تمام مع لون بشرتك. والله لو شفتك في الشارع بدون ما أعرفك لقلت إنك خواجة.. خواجة أمريكاني يا أستاذ حسن والله". ثم أضاف وهو ما زال مدققاً في صورتي المنعكسة أمامه على صفحة المرآة، بينما كنت أتابع بنظري

منظر قفاي الذهبي على المرآة التي كان يحملها بيده ويقربها من رأسي:

ـ أنا رأيي سيبك من النظارة وحط عدسات، العدسات أفضل بكثير وأشيك جداً. ثم إنك تستطيع التنويع فيها. يعني تحط مرة عسلي ومرة أزرق فاتح؛ حسب لون القميص أو البدلة.

ـ أزرق فاتح وأخضر. يا شيخ!؟. قلت مستنكراً.

ـ وبنفسجي يا أخي لو أردت. شفت مذيع في برنامج منوعات بعد نشرة الأخبار حاططها بنفسجي. لكن روح لدكتور وحطها تحت إشرافه أفضل.

ثم إن سعيداً اقترب مني وهمس في أذني بصوت حرص على ألا يسمعه صبيه الواقف على باب الدكان يرتب الفوط على الشماعة لتجف:

ـ على فكرة لو عاوز فياجرا، أقدر أوفرها لك وبسعر معقول والله. على ما يظهر – إن في الأمر إن. والموضوع ماشي معك آخر تمام.

ابتسمت بدوري وسألته:

ـ هل جربت الفياجرا يا سعيد بنفسك فعلاً؟

رد وعيناه تلتمعان بنشوة:

ـ ياه. أكثر من ممتازة. أم أحمد جماعتنا حامل في أربعة أشهر، وبعد شهر واحد من الفياجرا. تصور، كنت قد قطعت الأمل نهائياً، وفكرت في الحج وقلت لنفسي: ربنا يا واد يبارك لك في العيلين الكُبار وخلاص. لكن اسأل مجرب. هي سعرها كان حراق في البداية بعض الشيء، لكنها رخصت حوالي خمسين جنيهاً، وعموماً بكره يقننوها وترخص أكثر لما الحكومة تصرح بها؛ لأن الموجود في السوق كله تهريب.

ثم ضحك وأضاف:

ـ وربما يحصّلوا عليها ضرايب بعد فترة كما هي الحال مع تجار المخدرات.

لم أكن قد فكرت في الفياجرا قبل ذلك الوقت، فصهباء أقوى من الفياجرا. ولكن "لم لا" قلت لنفسي وأنا أدس في يد سعيد مائة

وخمسين جنيهاً: مقابل أتعابه، ومثلها تحت حساب ما سوف يجلبه لي من فياجرا.

❋ ❋ ❋

عادت صهبا بعد افتتاح التوكيل بعدة أيام. جاءت كعادتها في الصباح الباكر وظلت تقدم رجلاً وتؤخر رجلاً قبل أن تدخل، وهي تدور بعينيها في جنبات المحل مشدوهة من التغيرات الجديدة فيه، أومأت إليها أن تتحرك بسرعة، ثم سحبتها من يدها برفق، وأدخلتها بحذر خلف الباب المنطبق بديل الستارة القديمة كنت قد أعددت مفاجأة أخرى لها أيضاً تتناسب مع التغيرات الجذرية في المكان، فقد تخلصت من فراش السرير القطني القديم، والذي كانت زوجتي الراحلة قد أشرفت بنفسها على إعداده، بمرتبة من الإسفنج الصناعي الجاهز، ابتعتها من شركة تاكي الشهيرة بذلك النوع من المراتب، كما أن أغطية وملاءات السرير صارت من الساتان البوليستر والمطبوع بقبعات حمراء عالية ودببة زرقاء، وذلك بدلاً من ملاءات شركة المحلة القطنية التي كانت تدمنها زوجتي.

أما الكومودينو الصغير الموضوع إلى جانب السرير فقد فرشت عليه مفرشاً ملوناً، ووضعت فوقه مزهرية ملأتها بالورد البلاستيكي المصنع في تايوان، والذي يستحيل تفريقه عن الورود الطبيعية الأصلية بأية حال من الأحوال.

وقفت صهبا قليلاً إلى جانب السرير وكأنها لا تصدق ما حدث، ليس بسبب كل ذلك التجديد فقط – كما قالت – ولكن بسبب ما فعلته بنفسي، خصوصاً لون شعري الأصفر، وحاجبي المنتوفين والمرتبين بعناية، وعلقت عليهما بقولها: "الناقص هو أنك تكحل عينيك بكحل حجر وتكمل الحكاية". ضحكت على التعليق وأنا أرد: "ولم لا.. يعني هو حرام؟ الكحل سنة عن الرسول عليه الصلاة والسلام".

صهبا انهارت فجأة، فألقت بنفسها على السرير وراحت تنتحب بمرارة وهي تقول إنني أنوي الزواج من جديد وهجرها، وإلا فلماذا كل هذا التغيير والتجديد والورد، وكل ما فعلته بنفسي وكأني عريس جديد يوشك الدخول على عروسه بعد حين؟

ثم إنها علقت على قبعات الملاءات أمريكية الطراز بقولها:

"برانيط عفاريت، وشغل هبل، ودببة ولا كأننا في سيرك".

علق حسن الأول: "وأي سيرك يا بنيتي، ولكن السيرك كبير.. أكبر من هذا المكان بكثير وعلى نحو لا يمكن أن تتصوريه أبداً. لكز حسن الثاني الأول؛ لكي يخرس، فالمسألة لا تتحمل فلسفة الآن، فشكرته، إذ كنت مشغولاً بتهدئة صهبا وإسكاتها، فأخذتا في حضني، وأقسمت لها وأنا أقبلها وأربت عليها، أنه لا توجد أية امرأة أخرى في حياتي غيرها منذ أن عرفتها حتى الآن، بل إلى الأبد (حسن الثاني جعلني على وشك الضحك وهو يقرصني من أذني ويقول: يا ولد يا شقي. فابتسمت رغماً عني).

مسحت صهبا دموعها بعد فترة، وهدأت قليلاً، ثم قالت، إنني صرت أشبه واحداً من أولئك الذين يظهرون على شاشة التليفزيون، ويعلنون عن حفاضات العيال، ثم أردفت وهي تتحسس إليتي بيديها الجافتين الخشنتين بعد أن تعرينا تماماً وبدأت هي في مداعبتي:

ـ صرت كالخروف السمين.

ضحكت وتساءلت:

ـ وهل بانت السمنة على جسمي فعلاً يا صهبا؟ البدلة الجديدة مقاسها زاد نمرتين بس عن بدلي القديمة، وأصبحت البس ٥٨ بدلاً من ٥٦.

ـ آه سمنت، ولو أني لا أعرفك وأحفظك كحفظي لولدي الخارج من بطني، وتحسستك في الظلمة، لقلت إن ما بيدي ليس إلا لية كبش عجوز.

ضحكت حتى القهقهة لما قالته. كانت فجة ومبتذلة بعض الشيء، وكنت أشعر بالضيق برغم ضحكي، لكن حسن الأول همس لي "ولم لا، كل الأشياء صارت على هذا النحو الآن: فجة ومبتذلة تماماً.. ألا تسمع ألفاظ وعبارات الناس في الشارع؟ ألا تسمع تعبيرات الأطفال والشباب وهم يقولون كبر دماغك، واحلق له، وكل هذه التعبيرات اللامبالية المستخفة؟

حتى النساء والهوانم وسيدات المجتمع ونجوم الإذاعة والتليفزيون

بتن يستخدمن هذه الكلمات. أنسيت ما قالته لك زبونتك الدكتور عصمت شهاب الدين، وهي تحكي لك أثناء قيامك بتركيب جلد جديد لساعتها الذهبية، عن مشكلتها مع زوجها الرافض أن يطلقها؟ ألم تصفه بصفات يعاقب عليها قانون العقوبات ويصنفها جنحاً، وهي تشتمه وتسبه سباباً – وبعظمة لسانها- يتناول الجزء الأسفل من الجسد فيما تحت السرة وبين الفخذين؟

ـ أسمعت كمات الأغاني الجديدة التي ينعتونها بالشبابية؟

كنت قد بدأت أتفاعل مع صهبا وأستثار، فشكرت حسن الأول سريعاً مقاطعاً إياه، ودون أن أتيح له مزيداً من الفرصة؛ لكي يتوسع في موعظته وخطبته العصماء، مؤثراً الدخول في زمني الصهباى الجميل، بينما صوت مطرب شبابي شهير يلح على أذني، وهو يقول: الفاكس أكس في الألولو.

الأرباح فاقت كل توقعاتي، والتوكيل لم يزدني إلا رضاً عن نفسي، واقتناعاً بصحة قراري ومغامرتي المحسوبة، كنت أشعر خلال ذلك بأنني أعيش أحلى أيام عمري، وأن طاقة من السماء فتحت لي

واستجابت لدعوتي وأملي في أن تتغير حالي وأعيش حياة أفضل من تلك التي كنت أعيشها في السابق. فبعد مرور ما يقرب من سنة فقط، من بدء العمل ورص الساعات على رفوف المحل الداخلية وفاترينات الواجهات الزجاجية، ساعات من كل المقاسات والأشكال والأحجام، بدأت عجلة النجاح والشهرة تدور دوراناً سريعاً، فالموقع ممتاز والحي حيوي للغاية ومكتظ بالسكان، ومن الآن في هذا الزمان الذي يستغني عن ساعة يد، أو ساعة منبه توقظه عند الصباح ليذهب إلى عمله. وكان معظم العابرين للطريق أمام المحل، يتوقفون على نحو لا إرادي أمام الواجهات الزجاجية الفخمة والمبطنة من الداخل بمرايات فاخرة، تضفي على المعروف من الساعات جمالاً وتألقاً؛ فالديكور والعرض الباهر، كانا يشدونهم إلى تلك الواجهات شداً، ويجعلهم يقفون متسمرين وقتاً طويلاً، يتأملون المعروض من الساعات ومدى التنوع في أشكالها وأحجامها.

رواد محل الفراخ والوجبات السريعة المقابل للتوكيل، لم ينقطعوا

أبداً عن عبور الشارع والوقوف أمام الواجهات الزجاجية؛ للحصول على لذة سريعة أخرى بالنظر إلى المعروضات الزجاجية؛ حتى تلاميذ المدرسة الابتدائية إياها، كانوا يأتون للتأمل والنظر بوجوههم النحيلة المصفرة الشاحبة وملابسهم القطنية المتواضعة، بعد انتهاء يومهم الدراسي، وكان الصغار منهم يقفون محدقين بدهشة في الساعة الذهبية الضخمة المثبتة على الحائط المواجه لباب المحل. واحد منهم تجرأ – ذات مرة– ودخل المحل، ثم رجاني أن يتحسسها بيده، وسألني وعيناه تتسعان عن آخرهما بسؤاله البريء.

ـ هل الوقت مع هذه الساعة أكبر بكثير من الوقت مع الساعات الأخرى؟

لقد صار المحل، وبعد إنشاء التوكيل وكأنه معلم من معالم الحي، بل المنطقة كلها؛ ففي أحد الأيام قرأت نعياً بصفحة الوفيات في جريدة الأهرام، لسيدة توفيت بالعمارة، وبعد سرد أسماء أبنائها ومهنهم، وكذلك إخوتها وباقي أفراد عائلتها من أعمام وعمات وأخوال وخالات وأبنائهم وأحفادهم وعلى نحو استعراضي للجاه والنفوذ

والثراء، كتب في نهاية النعي عنوان العزاء، وكان ملخصاً في "عمارة التوكيل بحدائق القبة".

***

وبمرور الأيام، وبعد أن جرت الفلوس في يدي جريان الماء في النهر، داخلني طموح في أن أغير نمط حياتي، وأعيش حياة مختلفة أخرى، ففكرت في تأثيث شقة عصرية أنيقة، مجهزة بكل الآلات والأجهزة الحديثة وبوسائل الراحة والترفيه كافة، كالتي أراها دوماً في مسلسلات التليفزيون وأفلامه.

كان نموذجي الأمثل في ذلك شقة فاخرة رأيت أحداث مسلسل تليفزيوني مكسيكي تدور داخلها، وكنت قد تابعته بشغف في إحدى القنوات الفضائية العربية، وأثاث هذه الشقة كان على الطراز الإيطالي الروستيك بالغ الأناقة والفخامة، وقمة في الترف والذوق، وقد فكرت ذات مرة في أن ألتقط بالكاميرا عدة صور لهذا الأثاث حتى تكون نماذجه تحت يدي عندما أشرع في عمل أثاث جديد. لكني تراجعت عن هذه الفكرة؛ بعدما شاهدت فيلماً عربياً بإحدى

القنوات المصرية بعد ذلك، وكان الأثاث فيه لا يقل روعة عما شاهدته في المسلسل المكسيكي، فقلت لروحي يبدو أن الآن بمصر وبسوق الأثاث ما لم يخطر على بالي من فخامة وعظمة في الصناعة والذوق.

وفكرت جدياً في تغيير مسكني، وشراء شقة بحي من الأحياء الجديدة النابتة بين حين وآخر كالفطر في الصحراء المحيطة بجسد المدينة القديم. كانت الإعلانات التليفزيونية عن هذه المدن والأحياء الجديدة ومساكنها الراقية، والموجودة كل يوم وعلى امتداد صفحات كاملة بالجرائد والمجلات تغازل روحي وتمارس عليها نوعاً من الإغواء والإغراء الّذين لا يقاومان؛ فالشقق التي كانت تقدم في الإعلانات التليفزيونية تبدو فسيحة مرتبة، رائعة المعمار، والعمارات محددة في عدد طوابقها التي لا تزيد عن خمسة أو ستة طوابق، وهي ذات مداخل فاخرة، كما أنها محاطة بحدائق وخضرة تفسح ما بين شوارعها المخططة بنظام.

الأمر الوحيد الذي جعلني أظل متردداً في عملية الانتقال الفعلي إلى

واحدة من هذه الأحياء، هو بعدها النسبي عن المدينة القديمة، وكل تلك الصحراء القاحلة المحيطة بها من كل جانب، فهي مقطوعة عن العمران في تلك الرمال القاحلة، بلا مبرر ولا معنى، وكأنها مدن لقيطة وُلدت في الحرام، خُلقت بلا مبرر شرعي للوجود، ولا تلبي حاجة إنسانية لازمة، وكأنها ولدت في لحظة خطأ، وزمن نزوة خافة، غير متعقلة ولا مدروسة.

كنت أفكر طوال الوقت، أيستحق الأمر أن أقطع كل هذه المسافات الطويلة، وأخوض زحام المواصلات، وقبل ذلك السير في هذه الصحراء الموحشة يومياً لأصل إلى عملي في التوكيل؟ والحقيقة هي أنني لم أستطع التوصل إلى قرار صائب في هذا الأمر، فعين في الجنة وعين في النار، وما زلت أعيش في مسكني القديم دون أن أغيره، ودون أن يفارقني الشعور الدائم بالضيق من الاستمرار في السكن بحي الحدائق، بعد أن تدهورت حاله وأخنى عليه الدهر كما يقال؛ ففقد عزه القديم، وصار مزدحماً قذراً، صاخباً، بعد أن انفلت عياره، ولم يعد هناك رابط ولا حاكم لعمليات الهدم والبناء والتعلية

في منازله القديمة وفيلاته الشهيرة الرائعة، والتي كان يسكنها ذات يوم مشاهير مصر وفنانوها العظام من أمثال جورج أبيض ونجيب الريحاني وغيرهم.

لقد أصبح حي الحدائق وكأنه سوق من الأسواق العشوائية المبتذلة؛ فشوارعه تمتلئ بالمحلات من كل نوع وشكل، ولا مانع من محل أغذية أو أطعمة جاهزة إلى جانب ورشة لتصليح السيارات. تتطاير عوادم العربات وروائح البنزين ونواتج احتراقه منها على الأغذية الموجودة بالمحل المجاور، وهذا محل لعصير القصب، إلى جانب محل لقلي أو شي الأسماك، وهذا مستشفى أو عيادة، وتحتها دكان يبيع شرائط التسجيل ويبث أغانيه الزاعقة طوال اليوم وحتى خلال ساعات متأخرة من الليل، دون مراعاة حالة المرضى وآلامهم. لقد فقد الحي روحه القديمة، وشاخت ملامحه وباخت، وفقد جماله القديم، وتشوهت ملامحه، ولم يعد هناك معنى لاسمه القديم "حي الحدائق"؛ إذ صار بلا حدائق ولا أشجار، ولا مساحات خضراء جميلة، مثلما كان الأمر في زمنه الماضي القديم، بل لعله من الأنسب

أن يطلق عليه الآن "حدائق الإسمنت".

فكرت كذلك، وبعد تغيير الحال في السفر والسياحة، فكثيراً ما فكرت في كلمات صديقي خليل ابن طنط نجية الذي كان لا يمل من قولها لي قبل سفره: "حاول أن تسافر يا حسن، الدنيا بره حاجة ثانية خالص، لازم تسافر وتعرف حقيقة الوضع الذي نعيش فيه هنا، وتدرك مدى قبح مدننا وقذارة أحيائنا، وبؤس ريفنا وغياب الجمال عن أبنيتنا وعماراتنا، بل حياتنا كلها".

وقد حفزني على التفكير في السفر، إعلان لشركة سياحة تعمل بطريقة اقتسام الوقت، وهكذا بدأت في تطبيق نصائح خليل القديمة عملياً، فمندوب الشركة أوصلني إلى حالة من اليأس والموافقة الفورية، بعد أن كرهت عيشتي وهو يسرد على مسامعي مزايا هذا النظام الذي يحفظه عن ظهر قلب، وكأنه شريط تسجيل، وليس كائناً بشرياً يتكلم. وهكذا استسلمت سريعاً بدوري لأسكته واشتريت أسبوعاً في واحد من فنادق مدينة شرم الشيخ بسيناء، وعندما ذهبت إلى هناك، وجدتني في عالم آخر تماماً، عالم لم أعرفه

من قبل، ولم أشعر معه بأنني يمكن أن أكون داخل مصر.

فرواد الفندق الإيطالي معظمهم من الأجانب القادمين؛ بغية تعبئة الشمس برونزاً على أجسادهم، وممارسة مغامرة الغطس في مياه البحر الأحمر النادرة وعالمه البحري العجيب. كان ثمة عالم غريب بالنسبة إليَّ، شعرت وكأنه مصنوع صنعاً، ويفتقد إلى الروح الساحرة للاصطياف في الإسكندرية أو مرسى مطروح أو رأس البر أو بلطيم، لكنني انبسطت طبعاً وحولي شقراوات وسمراوات من جميع أنحاء العالم، بمايوهات قطعتين، وأحياناً بقطعة واحدة تبعد عشرين سنتيمتراً تحت السرة.

لقد غير التوكيل حتى نظامي الغذائي وذوقي في المشروبات؛ فقهوتي الصباحية، والتي تعودت شربها من بن سيد البنان، لا أعرف كيف استبدلتها بمشروب النسكافيه، وأظن أنني وجدته أسهل في التحضير، وربما أكثر ملاءمة لمكان عملي بالتوكيل، وقد اقتنعت بذلك بمرور الوقت، وإن كان عن طريق الصدفة البحتة؛ فقد اشتريت علبة أكياس نسكافيه على سبيل التجربة لا غير. وبينما

كنت أتناولها مجرباً ليس إلا، أتاني أحد الزبائن فدعوته إلى شرب فنجان منها معي على سبيل التحية. ويا للعجب، فقد كانت النتيجة مذهلة؛ إذ أن الرجل اشترى ساعتين، لا ساعة واحدة. ثمنهما يربو عن الألف من الجنيهات، بينما كان يحتسي هذا المشروب السحري، وكان يردد بين الحين والحين: لا.. لا داعي والله لمزيد من الأدلة على مميزات الساعة. أنا واثق من صحة كلامك عنها، ويكفي يا سيدي ذوقك، وأنك من شريبة النسكافيه.. هاهاها.

وهكذا – ومن يومها – بت من أتباع النسكافيه، وقد أدركت إضافة إلى طعمها المميز الخاص، قوة بركتها الخفية وسحرها المبين على زبائن التوكيل.

اشتريت طبقاً جعلني في بؤرة العالم، عبر أثير طاغ مكتسح، يبث إرسال حوالي مائة وثمانين قناة فضائية في قارات الأرض الست.

البائع قال لي:

– يمكنك الحصول على قنوات أكثر.

لكني كنت قنوعاً فاكتفيت بالمائة والثمانين، وكم كنت محقاً في ذلك،

فأنا وبمجرد دخولي إلى البيت، أهرع لتشغيل جهاز التليفزيون، وأتسمر أمامه طوال الليل، بينما أجلس إلى كنبة الأنتريه المقابلة له، كنت أقوم مسرعاً بين الحين والحين لأجهز لقمة للعشاء، أو كوباً من الشاي أعود بعدها للجلوس مرة أخرى أمام ذلك العالم الفاتن المتدفق أمام نظري، والذي أقتنص تنوعاته وأنا في مكاني بالريموت كنترول. والحقيقة أنني صرت وبعد فترة من شراء هذا الطبق مدمناً للفرجة على برامج المسابقات وما تقدمه للفائزين فيها من جوائز يصل بعضها إلى مليون دولار دفعة واحدة. وكنت أيضاً مفتوناً بتلك القنوات الأجنبية، وما تبثه من عوالم سرية تجعلني مبهوتاً لا أصدق ما يدور فيها من علاقات بين الرجال والنساء، وكانت دهشتي الكبرى هي تلك السلع المسائية العارية التي تباع على الشاشة، ويمكن الحصول عليها بالهاتف، وبسعر محدد سلفاً. كانت شقراوات وصفراوات وسوداوات وبيضاوات من كل الأعمار والأجناس، وعلى عينك يا تاجر، وكأنهم مساحيق غسيل أو أجهزة إلكترونية تباع وتشترى، وكان مثل هذه القنوات هي معيني الليلي

على مواجهة مشكلاتي الجسدية، وتعويضاً عن افتقادي الجسدي المزمن لصهبا غير المتاحة دائماً، والمستحيلة حتماً في مثل هذا الوقت المتأخر من الليل.

بعد هذا التطور الإعلامي الجذري في حياتي بسبب الطبق، بت لا أهتم كثيراً بجريدة الصباح، لدرجة أنني وبرغم مواظبتي على شرائها يومياً، كما تعودت دائماً، إلا أنه كانت تمر بضعة أيام كاملة دون أن أمسها أو أفتحها أو حتى أقلب صفحاتها دون قراءة، فلقد زهدت فيها ولم أعد أتحمل قراءتها، مثلما كنت في السابق. كما لم أعد أتحمل الفرجة على الأفلام العربية القديمة المبثوثة عبر القنوات التلفزيونية المحلية. والحقيقة أن شعوراً بالخديعة داخلني إزاء هذه الأفلام، بعد شراء الطبق والفرجة على الأفلام الأجنبية، وبدا لي هذا الشعور مشابهاً لشعوري تجاه زوجتي الراحلة عند بداية علاقتي السرية بصهبا.

***

بمرور الوقت أخذت علاقتي بشريكي في التوكيل تتزايد أكثر فأكثر؛ خالد متولي، البالغ من العمر حوالي ستة وخمسين، والمحور الأساسي للمشروع؛ وقريبه إبراهيم عبد الغني، وسنه لا تزيد في تقديري عن اثنين أو ثلاث وأربعين سنة. كانت دعوتهما للسهر تتكرر لي بين وقت وآخر، فنذهب إلى العشاء في مطاعم وأندية ليلية فاخرة، لم أكن أتصور وجودها إلا في أفلام السينما، ولم أكن أظن أن قدمي يمكن أن تطأها أبداً، ومن خلال ذلك أدركت مدى تشعب علاقات شريكي مع شخصيات مهمة ومرموقة داخل مصر وخارجها. كما أدركت أن إبراهيم على علاقة بطبيبة أشعة جميلة وثرية، وإن كانت تكبره في العمر، وزوجها يعمل مديراً لمستشفى كبير في الخليج، لكنه لا يزورها في مصر إلا قليلاً، وهي لا تطلب من إبراهيم إلا المودة والستر.

خالد متولي بقي لغزاً شائكاً بالنسبة إليَّ، فعلى الرغم من تقدمه في العمر، لكنه شديد الوسامة والأناقة؛ جسده ممشوق دون ترهلات، ووجهه شاب جذاب جداً، كان رجل له وهرة – كما تقول صهبا

عن مثل ذلك النوع من الرجال – لكن على الرغم من ذلك كله، لم ألحظ عليه اهتماماً مرة بامرأة من أولئك اللواتي كن يظهرن في سهراته ومجالسه المختلفة. بقيت فترة متحيراً لهذا الأمر، وفسرته على أنه نوع من الاستقامة أو الحرص على سمعته في السوق؛ فهو متزوج وله ثلاثة أبناء من الذكور، لكن بعد عدة سهرات لشرب الحشيش معه اتضحت الرؤيا، فخالد هو متعاطٍ جيد للحشيش، وخبير في أصنافه، لا يتعامل مع النوع النسائي ويفضل الرجالي. كانت جلسات الكيف تتم في شقة تخصه لوحده دون أسرته المقيمة في فيلا بالمهندسين، تقع في الدور السابع عشر بإحدى عمارات المنيل المطلة على النيل مباشرة، وكان يؤم هذه الجلسات، إضافة إلى رجال يشغلون مناصب مهمة ومرموقة، أجانب، ونساء منهن صحفيات ومثقفات وطبيبات، أذهلتني معرفتهن بأحوال البلد والدنيا، وكلامهن في السياسة والمسائل العامة في هذه الجلسات، والتي كانت تضم صنوفاً شتى من البشر، كان يوجد دوماً شاب فتي وسيم، هو موضوع رعاية دائمة من خالد، وهو المفتاح الحقيقي

لعالمه السري، الذي لم يكن أرى منه إلا جانباً يسيراً، لكن هذا العالم كان هو السكة التي قادت خالد إلى التوكيل والعمل مع الشركات العالمية. فخالد – في الأصل – من أسرة ثرية جداً، أُممت ممتلكاتها بعد ثورة ١٩٥٢، لكن ذلك لم يمنع من أن يدرس خالد في أرقى جامعات إنجلترا هو وإخوته، وينفق على تعليمهم وإقامتهم هناك، مما خف وزنه وغلا ثمنه الذي احتفظت به الأسرة بعيداً عن أعين الحكومة زمن التأميم، من أراضٍ وعقارات وأطيان زراعية تناثرت على خريطة البلاد.

علاقة خالد بالأجانب جاءت على خلفية من النصف الأسفل من الجسد (كنت اكتشفت كلما مر الوقت، كم هذا النصف ضروري ومهم في صياغة العالم)؛ فعلاقاته الحميمة بالأجانب تمخضت عنها حميمية موازية في عالم المال والأعمال، والتوكيل ليس إلا واحداً من مصالح خالد العديدة، ومشروعاته المالية المترابطة مع مشروعات مالية أجنبية أخرى.

عموماً كل إنسان حر في جسمه وحياته، والمهم الكلمة الطيبة

واللسان الحلو بين الناس، وأنا لم أر من الرجلين غير الريق الحلو وكل خير في الفعل والسلوك، وخالد يده ممدودة للناس في السر والعلن، وربما كان ذلك وراء نجاحه وتوفيقه في أعماله ومنها التوكيل.

***

انقضى الآن أكثر من عامين على اشتغالي بالتوكيل، وكل شيء سار على ما يرام، فلا مشاكل ولا خلافات بيننا كشركاء، وسمعتنا جميعاً غاية في النظافة والاحترام، فنحن لسنا مديونين لأي بنك من البنوك، وحساباتنا نظيفة، وعملنا يسير بفضل الوضوح والاستقامة في تعاملاتنا مع الجمهور.

لكن قلقاً بدأ يساورني في الفترة الأخيرة، فمنذ حوالي أسبوع زارني رجل في المحل، وطلب شراء ساعة يد حريمي، وقال إنه يريدها هدية لخطيبة ابنه. عرضت عليه كل ما لدينا من ساعات قيمة أنيقة تليق بهدية من هذا النوع، لكنه ظل يقلب فيها ويسأل عن أسعارها دون أن يقتنع بشراء أيٍّ منها، أحضرت مجموعة أخرى من

الساعات، وبذلت جهداً حقيقياً لإغرائه وحثه على شراء واحدة دون جدوى. أخيراً أظهرت سلاح النسكافيه. وبينما نحن نرتشف من الفناجين ونتداول في عملية البيع والشراء، بدا أن الرجل مراوغ، وليست لديه نية فعلية للشراء، ثم أخذ يدور في المحل متفحصاً ما بداخل الفتارين الزجاجية من ساعات مدورة ومربعة ومثمنة ويسأل عن أثمانها ومدى صلاحيتها للعمل والضمان الخاص بكل منها.

ثم أخذ يستدرجني في الكلام ويسأل عن المحل والتوكيل، وتكلفة الديكور وأحوال شريكي. بدأت أستفز منه ومن أسئلته الفضولية، لكنه كان ناعماً ليناً، وكنت حريصاً على ضبط أعصابي أيضاً؛ فهو في الأول وفي الآخر ليس إلا زبوناً من الزبائن، وأنا حريص على سمعة التوكيل، وأسلوب تعاملنا الطيب مع الناس.

فجأة وجدته يحدق طويلاً في الباب المنطبق الفاصل بين الجزء الداخلي وبقية المحل، ثم سألني إن كان بالمكان دورة مياه؛ لأنه محصور جداً، وهو مصاب بمرض السكر. اضطررت لاقتياده إلى

الداخل ما وراء الباب المنطبق، وبقيت واقفاً وراء الباب منتظراً أن ينتهي من قضاء حاجته وفك أزمته، لكني شعرت وقد طال مكوثه بالداخل، بحركته غير العادية في الحمام، وكأنه يقلب في الأشياء الموضوعة فيه، وانتابني شعور مماثل بتلكؤه وهو يعبر الغرفة الداخلية؛ حيث سرير الغرام الصهباوي والزهور الصناعية على الكومودينو. تضايقت. وشعرت بوقاحته وتطاوله على عالمي وانتهاكه أسراري، لكني لم أبد أية رد فعل. حتى انصرف وقد زاد ضيقي منه أكثر؛ لأنه خرج دون أن يشتري شيئاً.

رجحت أن يكون الرجل من رجال مصلحة الضرائب، فأسئلته تتجاوز حدود أسئلة الزبون العادي، ولكن حسن الأول ذكرني بأن التوكيل معفي من الضرائب لمدة خمس سنوات كاملة وفقاً للقانون. إذن الرجل لم يكن من مصلحة الضرائب فمن يكون إذن؟ فكرت وقد داخلني توجس حقيقي، وقررت مفاتحة شريكي في أمره، لكني تراجعت عن ذلك، فلا داعي لأن نعمل من كل حبة قبة، وآثرت الانتظار حتى يظهر في الأفق ما يدعو إلى القلق أكثر.

بعد ذلك بعدة أيام، كنت أزور أختي بالصدفة، وهناك التقيت زوج شقيقة زوجها وهو ضابط مباحث، وأثناء انشغال أختي وزوجها بتحضير مائدة العشاء، انتحى الرجل بي جانباً، وراح يسألني عن أحوال التوكيل، ثم قال إنه اشتم معلومات تتعلق بنشاط آخر لواحد من شريكيّ لا يعتبر نشاطاً حميداً. اشتممت بدوري رائحة غير مريحة في كلامه عنهما، وطريقة سؤاله عن علاقتي الاجتماعية بهما، ثم سألني فجأة:

ـ هل صحيح أن واحداً من شركائك يمتلك شقة في سويسرا؟

كنت أعرف أن خالداً له شقة في الخارج، وهو يسافر إليها كل صيف مع عائلته أحياناً، وبمفرده أحياناً أخرى، لكنني أجبته.

ـ لا أعرف عن هذا الأمر شيئاً. لكن خالد غني، وهو من عائلة كبيرة غنية أصلاً، ومن المحتمل أن تكون لهم شقة خارج مصر من زمان.

رد بسرعة وهو يحاول جري لمزيد من الكلام:

ـ آه. عيلته كبيرة، غنية أصلاً، وكذلك أهل زوجته تجار سجاد أباً

عن جد، ومن زمان، لكن خالداً عنده قرية سياحية في الساحل الشمالي على ما أظن.

ـ قلت لا أعرف والله، هو غني كما قلت لك، لكني لا أعرف أي شيء عن أعماله الأخرى غير التوكيل.

كنت صادقاً في ذلك، وعرفت لأول مرة حكاية أهل زوجة شريكي والسجاد، فالمرة الوحيدة التي زرته فيها بمنزل زوجته وأولاده، وكانت عند مرضه بالانزراق الغضروفي، لاحظت كمية السجاد القديمة المفروشة بكل مكان من صالون الفيلا الفسيح وغرفة النوم التي كان راقداً على الأرض دون سرير فيها.

انتهت السهرة وأنا منزعج بعض الشيء من قريب زوج أختي؛ فلقد جعل الفأر يلعب بعبي بعد ذلك الحوار الذي دار بيننا، وكان ما زاد انزعاجي أكثر كلماته الهامسة عند الباب وهو يودعني.

ـ خلِّ بالك من نفسك يا أبا خليل.

بعد أن عدت إلى البيت بعد منتصف الليل بقليل، كنت غاية في القلق والتوتر، أخذت أقلب المسألة على كل وجه، وجلست أمام

التليفزيون أرتشف كوباً من النعناع المغلي بسبب تقلصات معدية أخذت في مداهمتي؛ ربما بسبب الأكل الدسم الذي تناولته عند أختي، والذي كان يتكون من بط محمر وملوخية وصينية مكرونة بالفرن. رحت أستعيد عبارة رجل المباحث بداخلي وأقلبها على كل وجه، ودون أن أعير اهتماماً كبيراً بحلقة مصارعة حرة كانت تبثها قناة فضائية آنذاك.

غيرت القناة، فجاءت الفضائية المصرية، وكانت تبث برنامجاً سياحياً عن مدينة الأقصر، لم أقلب القناة بالريموت وارتشفت قليلاً من النعناع و "خلِّ بالك من نفسك يا أبا خليل، ما زالت تتردد بداخلي".

قلت لروحي: الرجل لابد يعرف شيئاً، لكنه لا يفصح لي عنه، لكن عملي في التوكيل يسير على ما يرام، فكل شيء قانوني ولا تلاعب ولا التواء فيه، ورسالة الساعات تصلنا في التوكيل بعد استخلاصها من مصلحة الجمارك بمنتهى السلاسة، ودون تعقيدات تذكر؛ بفضل شبكة علاقات خالد متولي، وقدرته على فك حبال

التعقيدات البيروقراطية بالرشاوى والفلوس، وعندما أقوم باستلام الساعات الواردة، أوقع على استلامها وأوزعها على رفوف فاترينات العرض، وأضع إلى جوار كل منها السعر المطلوب للبيع، ثم إن حصيلة البيع يتم حصرها شهرياً وفقاً للفواتير القانونية المعتمدة، وتودع الحصيلة أسبوعياً في البنك، وأنا أحصل على راتبي شهرياً، نظير الإدارة والبيع، وكذلك على حصتي السنوية من الأرباح باعتباري شريكاً في التوكيل. إذن.. ما المشكلة؟ ولِمَ الخوف؟ أنا لا أستطيع أن أفهم؟!

قطع برنامج الأقصر وهواجسي إعلان فوط صحية للنساء، كان لمجموعة من الشابات الرشيقات جداً يتقصعن ويرقصن ثم يتشقلبن في أرجوحة داخل حديقة واسعة عند حمام سباحة، وهن يتغنين بكلمات صلاح جاهين: الدنيا ربيع والجو بديع، ثم يقطع الغناء بصوت رجولي يقول: الدنيا ربيع وأمان مع فوط صحية أمان.

وفور ذلك الإعلان، فوجئت بإعلان التوكيل خاصتنا، وكان لفتاة

شقراء لها عينان زرقاوان (عدسات طبعاً)، ترتدي ثوباً وردياً مكشوف الذراعين، ثم تأخذ في تحسس ذراعها اليمنى بأناملها اليسرى على خلفية موسيقية حالمة، كما يحدث في أفلام السينما. كانت الفتاة تغمض عينيها في هيام، وتفتح فمها على نحو مثير، ثم تغلقه كما لو كانت تتأوه، وفجأة يظهر خلفها شاب شديد الجمال، يلتصق بها قليلاً، ويطوقها بذراعيه، ويطوق معصمها بساعة من ساعات التوكيل، بينما يأتي ذلك الصوت الرجولي الذي كان في الإعلان السابق ليقول: "ساعة الساعات الحلوة" ساعة.....، ثم يبدأ في سرد اسم التوكيل وعنوانه بحدائق القبة، حيث يمكن شراء الساعة منه.

استرحت قليلاً بعد ظهور الإعلان، والذي كنت أعرف أنه يبث منذ أسبوع، لكن الفرصة لم تسنح لي من قبل لرؤيته. وقد داخلني – في الحقيقة – نوع من الزهو، فها أنا صرت شريكاً في توكيل دولي عالمي، تبث إعلاناته في التليفزيون، ويشاهده ملايين الناس عدة مرات كل يوم.

"لا. لا توجد مشكلة ولا داعي للخوف". همس لي برقة حسن الثاني، لكني كنت قد بدأت أفكر مرة أخرى في سهرات الحشيش وخالد متولي، وتساءلت: هل يمكن أن يكون خالد متولي من تجار المخدرات؟ وهل يمكن أن يكون مشروع التوكيل ليس إلا ستاراً يخفي به نشاطه في هذه التجارة غير المشروعة؟

قاطعني حسن الثاني بحدة:

"يا سيدي أنت كبير كفاية، وتعرف أنه هناك دائماً من هم أعداء للنجاح. هناك من يصر على التشكيك في كل شيء ناجح؛ لينغصوا على الآخرين فرحتهم بالنجاح. لا تهتم ولا تقلق، نفوس الناس غير سالمة، وعقدها ومشاكلها ياما".

هدأت قليلاً، وداخلني نوع من الاطمئنان لكلماته التي لا تخلو من وجاهة ومنطق، ثم إنني أغلقت التليفزيون وذهبت إلى السرير، لأشد اللحاف على جسدي وأنام.

صهبا جاءت بعد ذلك بعدة أيام، كنت متشوقاً لها، ومتلهفاً على وصالها؛ فهي لم تزرني منذ أكثر من شهر، قالت إن زوجها كان

مريضاً جداً، أدخلته المستشفى واضطرت أن تكون بجانبه، حتى تحسنت أحواله، وزال الخطر عنه بعد إصابته بأزمة قلبية مفاجئة. المحل كان مضغوطاً، ورِجل الزبائن لا تنقطع عنه بسبب اقتراب موسم الأعياد، فحتى لو كانت صهبا قد جاءت، فلم يكن من الممكن الاختلاء بها، كنت أدرك أنني صرت مدمناً لها بالفعل، وما يدور في الفضائيات وأشاهده كل مساء، فتح عيني وشهيتي على رغبات جسدية لم أكن أظن أنها كامنة بداخلي على هذا النحو. لم أصبر عليها حتى تستريح وتلتقط أنفاسها من السكة والمشوار، بل أدخلتها بسرعة إلى ما وراء الباب المنطبق، ورحت أخلع عنها ملابسها وأخلع ملابسي، لأغرق في زمنها الجسدي المبهم والغامض، والذي لم أستطع تفسيره أبداً. كنت أضاجعها وكأني أضاجع امرأة لأول مرة في حياتي، أو كأني سأضاجع امرأة لآخر مرة في حياتي، ودهشت صهبا وضحكت وهي تقول برقة:

ـ هه عرفت أنه ما في واحدة غيري عندك.

ابتسمت بدوري وقلت لها: أنت شكاكة وغيورة وعبيطة.

كنت سعيداً جداً وأشعر بسكينة واسترخاء ما بعد الوصال. ضممتها إلى صدري بحنان، ولا أدري لماذا تذكرت فلوسها فجأة، فقلت لها بينما أقوم لأعاود ارتداء ملابسي:

ـ آه.. نسيت أقولك على مفاجأة عاملها لك.

ـ مفاجأة؟ خير.

قالت ورسمت بحاجبيها الرفيعين علامتي استفهام سوداوين، بينما أصابعها مشغولة بجدل شعرها الأكثر سواداً.

ـ آه.. عملت حسابك إمبارح، ولك في ذمتي ألفان وتسعمائة وخمسة وأربعون جنيهاً فقط لا غير. وضحكت وأنا أقول فقط لا غير.

ـ حسابي يا حسن؟ قالت وهي تسدد لي نظرة حادة.. مستنكرة. محتقرة وغريبة، مستحيل أن أنساها أبداً.

ثم وجدتها ترتعش وهي تقول:

ـ حساب بيننا.. بعد كل هذا؟ يا خسارة.

ثم أنها قامت بسرعة وصفعتني على وجهي، وبصقت، ثم خرجت مسرعة وهي تقول:

ـ من هنا وطالع. إنت من سكة وأنا من سكة. وصالك انتهى يا حسن.

بقيت واقفاً مذهولاً، حتى إنني لم أستكمل شبك أزرار قميصي الذي كنت قد ارتديته. هل ما حدث للتو كان مشهداً في فيلم سينمائي سخيف؟ ما الذي قلته وأخطأت فيه واعتبرته هي جريمة لا تغتفر حتى تعاملني بهذا العنف الغريب؟ صهبا تلطمني على وجهي. هذا هو الجنون بعينه. إن ما حدث لا أستطيع تصديقه أو تفسيره، أو استيعابه. إنه شيء يفوق الخيال.

رحت أردد لنفسي وبدهشة بالغة كل كلمة قلتها لها، علني أجد فيها ما يهين أو يشين: "عملت حسابك إمبارح. ولك في ذمتي ألفان وتسعمائة وخمسة وأربعون جنيهاً". ما العيب يا عالم في مثل هذه الكلمات؟ وما المعيب فيها والذي يدفع إلى الضيق والغضب، الذي يجعلها تلطمني بضراوة، ثم تفر بعدها من أمامي وكأنني وحش ضار على وشك الهجوم عليها وافتراسها، أو كأنني إنسان مجذوم يستحيل أن تبقى معه؛ سينقل عدواه إليها.

سمعت وقدع أقدام، وأصوات زبائن عند مدخل المحل، فسارعت بارتداء ما تبقى من ملابسي، وخرجت إليهم لاستطلاع ما يرغبون في شرائه، لكني كنت كالمجنون فعلاً، فلقد طيرت هذه الشعنونة برجاً من دماغي وتركتني في حيص بيص طوال الوقت بعد ذلك.

ما إن حان موعد إغلاق المحل عند العاشرة مساء؛ وفقاً لمواعيد التوكيل المعتادة، حتى عدت إلى البيت منهاراً، فما حدث من صهبا تفسيره الوحيد هو إما أنها مختلة بالفعل، وإما أنها تتذرع بأي شيء كي تنهي علاقتي بها، فلقد كنت حريصاً على أن أحتفظ بكل ما تدخره وتودعه عندي من نقود، بعيداً عن ابنها، في خزانتي الخاصة بالتوكيل، وفي مظروف خاص بها، وبالأمس فقط، فكرت أن أعد وأحسب ما تجمع لها من نقود عندي، وها هي تستنكر أن أعلمها بما لديها من فلوس. إذن.. هي تعتبر هذه النقود نقوداً مشتركة، تخصنا معاً، نقودها هي نقودي: هاهاها. ضحكت بمرارة وأنا جالس على كنبة الأنتريه، أسترجع تاريخ علاقتي بها منذ حضورها إلى المحل لأول مرة منذ عدة سنوات لتربية الخرفان، وجهها الحميم وبراءتها

البدوية الفجة، مشاكلها مع ابنها وقصص بناتها وصعوبات تزويجهن، ثم تلك العلاقة التي اندلعت نارها وظلت مشتعلة، وها هي تسعى لإطفائها مرة واحدة، ولسبب واه غريب لا يمكن فهمه أبداً. هذه المرأة تشعرني طوال الوقت، ومنذ بداية علاقتي بها، وكأنها ند لي، مساوية لي في كل شيء، أحب ذلك أحياناً، لكنني لا أحبه في أحيان كثيرة، هي لا تطالبني بشيء أبداً، كل محاولاتي لإرضائها بهدايا، كانت تقابلها باستخفاف، بل وباحتقار أحياناً، لم أشعر يوماً أنها تريد أي شيء من هذه العلاقة، لكن ها هي تفصح اليوم، أنها تريدني فقط، تريد أن تتوحد بي في كل شيء حتى في الفلوس.. ألم تقل: "حساب بيننا يا حسن.. يا خسارة".

يعني مالها ومالي شيء واحد وحسابها هو حسابي.. لا أدري هل هذا هو فهمها للعلاقة التي بيننا.. أي فهم هذا؟.. لا أدري أيضاً.

ما الذي كانت تتصوره بخصوص هذه المدخرات. لا أعرف. هل كانت تظن أني سأفاجئها ذات يوم وأقول لها: لقد صرفت فلوسك يا صهبا، المبلغ الذي ادخرتيه احتجته وصرفته؛ لأني كنت معذوراً

في حبة فلوس وانت عارفة إن فلوسي وفلوسك واحد؛ لأنه مستحيل تكون بيننا أية حسابات.

هاهاها. هل كان هذا يرضيها، فتهجم علي كما تفعل أحياناً فجأة وبدون مناسبة، فتحضنني بقوة، وتمطرني بقبلاتها، بدلاً من أن تصفعني تلك الصفعة المجنونة التي ما زلت أسمع صداها العنيف يتردد بداخلي.

إن علاقتي بهذه المرأة غريبة حقاً، وهي سرية بالفعل، سرية أكثر مما يجب؛ فلا أحد يعلم بهذه العلاقة أبداً، حتى شريكاي لا يعلمان أي شيء بخصوصها، فأنا حذر وحريص على حضور صهبا في مواعيد يستحيل أن يكون أيٌّ منهما موجوداً خلالها بالتوكيل، وصهبا متفهمة لذلك، وهي أشد حرصاً مني على ذلك؛ فهي بدوية ومتزوجة، وهذه الأمور عندهم لا تفاهم ولا مغفرة فيها، وهي تأتي وتذهب بحذر وهدوء في كل مرة، ودون أن يشعر بدخولها وخروجها أي مخلوق، وعلى أية حال، فتقديري دوماً هو أنه لو حدث ما لم يحمد عقباه، واشتم أياً كان رائحة هذه العلاقة؛

فتجارتي في الخرفان معها سوف تكون المبرر المقبول لحضورها والستر والغطاء لهذه العلاقة.

خالد شريكي، رآها بالصدفة وهي خارجة من المحل ذات مرة في الصباح، لم يعلق، ظنها زبونة عادية من زبائن التوكيل، واكتفى بأن قال لي وهو يشير إلى عمال شركة المكيفات الذين جلبهم لتصليح مكيفات المحل.

ـ حتى البدو يا أخي تمدنوا وصارت حريمهم تلبس ساعات.

كنت أرغب وأنا جالس في مكاني على الكنبة الكلام مع أي إنسان، فقد كنت يائساً مهموماً ومنهاراً تماماً. كانت بي رغبة للبكاء، والفضفضة على صدر أي مخلوق أستطيع البوح له بقصة صهبا، وإلى أين آلت؛ ليفكر معي ويدبرني فيما يجب فعله بعد ذلك.

فكرت أن أحكي لخالد شريكي؛ فهو كبير وذكي ومجبر ويستطيع أن يفتي وينصحني، لكن المشكلة هي أنني وبرغم تطور علاقتي بخالد على المستوى الإنساني، لا أستطيع أن أفضفض معه، فشيء ما لا أعرف ما هو بالضبط الذي يحول بيني وبينه، فأنا أشعر أنه ما زالت

حوائط كبيرة بيننا، وعلاقتي به لم ترق إلى مستوى الصداقة أبداً، وربما كانت مسألة علاقته بالشبان سبباً لذلك. لا. مستحيل أن أقول شيئاً لخالد، ولا حتى لإبراهيم. إن علاقتي بهما وبرغم توطدها، لم ترتق إلى مستوى الصداقة أبداً.

فكرت في خليل بن طنط نجية، صديق طفولتي القديم، لكن أين هو الآن؟ هل يعقل أن أرسل خطاباً وأحكي له فيه تفاصيل علاقتي بصهبا، ثم إن موضوعاً حساساً وشائكاً كموضع علاقتي بصهبا لا يمكن شرحه في خطاب، إنه يحتاج الأخذ والرد وجهاً لوجه.

إخوتي؟ مستحيل بالطبع مفاتحتهم في مثل هذه الأمور وللأسباب التاريخية المعروفة. إذن لمن أفضفض يا ربي بهذه القصة الغريبة، التي انتهت اليوم تلك النهاية السينمائية التي تكاد أن تفتك بعقلي الآن فعلاً؟

والغريب – وهذا ما يزيد من جنوني الآن – هو أنني لا أعرف لتلك المرأة سكة ولا عنواناً أذهب إليها فيه؛ فهي التي كانت تأتي إليَّ دوماً كما لا توجد لدي أية وسيلة للاتصال بها، أعرف فقط أنها تعيش في

منطقة عرب الحصن، ولكن حتى لو عرفت عنوانها في عرب الحصن على وجه التحديد، هل أذهب إلى هناك وأسأل عنها؟ هل من المعقول أن أروح وأقول للناس، أوصلوني من فضلكم إلى منزل السيدة صهبا أم مناع وصفا وشروق وسعاد؟

ما صفتي بالنسبة إليها؟ قريبها؟ نسيبها؟ أو لعلي أقول لهم: هل تعرفون أيها الناس مكان حبيبتي صهبا؟

كدت أنفجر من الغيظ، تدخل الحسنون الثلاثة لإنقاذي ووفقاً لمواقفهم السابقة فقد ارتأوا:

حسن الأول: فرصة يا عم. إنهِ الموضوع، هو كله كان لخبطة في لخبطة من أوله.

حسن الثاني: إنها اللذة الوحيدة المتاحة لك في الحياة الآن، فلماذا تتركها تتسرب من بين يديك؟ اصبر بضعة أيام، فإن لم تتصل بك، فلسوف نجد حلاً بالضرورة، لا تخش شيئاً. كل مشكلة ولها حل.

حسن الثالث: حسن الأول معه حق. اتركها وابحث عن واحدة غيرها. تزوج يا أخي واستقر.

كدت أنفجر من الغيظ، فهم لم يقدموا أي حل يمكن اعتباره حلاً عملياً لمشكلتي، لا شيء يشفي غليلي أو يهدئني مما قالوه كلهم. وربما لأول مرة أشعر أنني لا أستطيع الأخذ بمشورتهم أو الاعتماد عليهم، وكنت تعباً مكدوداً؛ فنمت في مطرحي على الكنبة، وبعد أن فشلت في إيجاد حل لمعضلتي هذه.

أفقت بعد حوالي ساعة من نومي على كنبة الأنتريه، بينما صور حلم حلمته ما زالت ماثلة برأسي، فقد رأيت صهبا هنا في شقتي ضمن ناس كثيرين وخالد متولي، يجلسون لتدخين الحشيش والكلام في السياسة والأمور العامة، وفجأة يأتي عبد الغفار خفير عمارة الهواري ليقول لي: عاوزك في خدمة صغيرة، ثم يأخذني وينتحي بي جانباً في المطبخ، وأظن أنه سيطلب مني نقوداً، لكنه يقول لي وهو يبرم شاربه الطويل الخشن بأصابعه:

ـ معك سيجارة حشيش.

لم أنتظر أياماً فقط وفقاً لنصيحة حسن الثاني، بل صبرت ما يزيد عن الأسبوعين الكاملين دون أن أسمع من صهبا حساً ولا خبراً، كان

قلقي قد بلغ مداه وجنون غيابها قد فعل فعله معي، فصرت عاجزاً عن التفكير في أي شيء أو فعل أي شيء في الحياة، وكنت أمارس تفاصيل حياتي اليومية وكأني إنسان آلي يؤدي أفعالاً وحركات مطلوبة منه ليس أكثر. في إحدى المرات خرجت من البيت إلى التوكيل في الصباح، وتركت صنبور المطبخ مفتوحاً، وعندما عدت كانت المياه قد خرت منه وطفت على أرضية الشقة كلها، ووصلت إلى ردهة سلم العمارة. ومرة خرى بعت ساعة لزبونة بسعر ينقص عن سعرها الحقيقي بواحد وستين جنيهاً كاملة، وخلال ذلك كله رفضت دعوتين للسهر، واحدة من خالد شريكي، والأخرى من أخي الأكبر، الذي كان سيقرأ الفاتحة لواحدة من بناته على شاب جاره.

بدأت أقلق على روحي، وخفت أن أمرض أو يصاب عقلي بشيء، خصوصاً وأن سعالاً ظل يلازمني دون سبب مقبول، ولم تنفع معه الأدوية المعتادة في علاج السعال، فقررت الذهاب إلى الطبيب لاستشارته في ذلك.

خلال لحظة تجلٍ عبقرية، هبط الوحي على رأسي، وهداني تفكيري أن أذهب إلى رجل المهمات الصعبة، رجل المستحيل الذي "يحيي العادم"، كما وصفته امرأته بلسانها في عبارة لا تنسى ذات يوم، وهكذا قررت الذهاب إلى عبد الغفار خفير عمارة الهواري.

وجدت عبد الغفار جالساً في مقره المعروف بالعمارة، جالساً يدخن المعسل مع رجلين ربما كانا من أقربائه أو من العمال الذين يعملون في البناء بالعمارة، سلمت عليه وانتحيت به جانباً وقلت له إن الولية التي تشاركني في تربية الخرفان صارت لها مدة مقطوعة عني ولم تأتِ إلى المحل، وأنا لا أعرف لها سكة أو طريقاً.

فك عبد الغفار عمة رأسه الملونة والمزينة برسومات زخرفية بهتت معالمها ثم هرش صلعته، وراح يلف العمة على رأسه بإحكام مرة أخرى، وبتؤدة مصطنعة أغاظتني قبل أن يجيب:

ـ وأنت لساك مشارك على الغنمات من ساعتها؟

ـ آه. وهي بصراحة تمام ودوغري في معاملتها، لكن صار لها أكثر من شهرين لم تطل وتشقر علي في المحل، ولا شفت خلقتها.

كذبت وبالغت في موضوع الشهرين، لكن هدفي كان تحميس عبد الغفار ليتحرك في اتجاه عمل شيء وحل المشكلة، ويبدو أن الشهرين لم يكونا كافيين، إذ قال عبد الغفار بلؤم بارد:

ـ طيب وأنا ما عندي سكة لها. عمري ما شفتها. هل هي يعني بالأصل غنامة؟

أعجبني التعبير، وأدهشتني، وكدت أضحك وقد اكتشفت أنني ما إلا حبيب لغنامة، لكني قلت:

ـ آه.

ـ طيب. تلاقي عندها ظرفاً أو مرضانة. الأمر ما يسلم من المعاني.

ـ طيب والعمل يا عبد الغفار؟

تحسس عبد الغفار جبهته متجاهلاً سؤالي وسأل:

ـ يعني لك فلوس عندها، لازمة الدفع في التو.

حِرت، كيف أشرح له ضرورة صهبا بالنسبة إليَّ، فقلت:

ـ المسألة ليست مسألة فلوس، إنما الموضوع أن بيننا معاملات و...

قاطعني بسرعة:

ـ يعني مستلمة منك ساعات وحاجات، ولم ترد مقابلها.

ـ تقدر تقول شيء من هذا القبيل (وكنت أكذب مرة ثانية).

ـ طيب اتركني يومين. أشوف لك من جابها. الجدع الأولاني هو لابد وإنه عارف طريقها.

ـ تكون عملت لي معروفاً كبيراً يا عبد الغفار. ثم إني دسست في يده عشرة جنيهات وانصرفت آملاً عوداً أحمداً لصهبا.

"قلق من كل ناحية". قال حسن الأول بطريقته المتشككة دوماً فيما أفعله وأضاف: "لا تسكت على كلام قريب زوج أختك، ربما كان لشريكيك نشاط خطر بالفعل وأنت لا تدري، وقد تجد نفسك متورطاً في أمر لا تحمد عقباه، وأنت ليس لك في الثور أو في الطحين، حاول أن تفهم وربما توصلت إلى ما يفيدك ويرسيك على أمر تستطيع معه أن تمنع البلاء قبل وقوعه".

وهكذا أخذت بنصيحة حسن الأول الذي نجح في إخافتي فعلاً، فبدأت أدعبس هنا وهناك عن خالد متولي وإبراهيم عبد الغني، فزرت إبراهيم عبد الغني أكثر من مرة في بيته، متعللاً بحجج مختلفة

كان آخرها هو أنني تظاهرت برغبتي في الزواج مرة أخرى، وطلبت منه أن يساعدني في اختيار فتاة أو امرأة مناسبة؛ لذلك رشح لي واحدة من قريباته فذهبت لرؤيتها في بيته، ودون أن تكون لي نية في الزواج فعلاً، لكن خلال هذه المرات القليلة كنت اكتشفت أنه لا يوجد ما يريب، وكل شيء في بيته عادي تماماً؛ فالرجل بيته مستور ومناسب جداً لرجل أعمال مثله وصاحب توكيل.

خالد متولي كذلك، لا يوجد ما يدعو إلى الشك فيه، فكل أموره من وجهة نظري عادية وطبيعية تماماً، وسفره المتكرر إلى بلاد بره، والذي يتم بين الحين والحين لا يوجد فيه ما يريب على الإطلاق بالنسبة إلى من هو مثله، فالرجل غني أصلاً ودرس في الخارج. وعنده علاقات بالخواجات ياما. لا شيء ملفت أو يستحق التوقف والريبة فيه لا. لا. أظن أن قريب زوج أختي هوّل الأمر بعض الشيء أو ربما طبيعة مهنته تجعله متشككاً في الناس دوماً، أو ربما وكما يرى حسن الثاني حاسداً للنعمة وكارهاً للنجاح.

استرحت قليلاً من هذه الناحية، لكن موضوع صهبا كانت ناره

تزداد تأججاً مع مرور الأيام، وكان يشغل كل حيز تفكيري في كل لحظة وكل دقيقة. وكانت فكرة أنها قد لا تعود أبداً تسيطر عليَّ وتصيبني برعب هائل. لقد أدمنت هذا المرأة مثلما يدمن خالد متولي الحشيش، ولا أتصور حياتي بدونها أبداً، ولن أتخلى عنها حتى لو اضطررت إلى الزواج منها ذات يوم.

سافر خالد متولي كعادته في أحد الأيام، وظل كل شيء يسير على ذات المنوال في التوكيل: بيعاً وشراءً وأرباحاً وحسابات وإعلانات ودعاية في التليفزيون والجرائد والمجلات، وكل واحد يعرف ما له وما عليه ولا يخل بالتزاماته تجاه شركائه.

ذات صباح وبينما كنت قد انتهيت من حلاقة نصف ذقني، بينما أشرع في حلاقة النصف الآخر، رن جرس التليفون، فخرجت من الحمام إلى الردهة بوجه نصف أبيض وأمسكت بالسماعة وقلت:

ـ آلو..

ـ صباح الخير يا حسن. شفت الجرنال أنا نادر قدري.

ـ لا والله يا نادر، أصلي عمال أحلق ذقني. خير. ضربوا العراق.

ـ العراق. لا. يا حسن شريكك خالد متولي متورط مع عصابة كبيرة لتهريب الآثار. قبضوا على ناس منهم وهو هربان، وطلبوا من الإنتربول الدولي ضبطه وإحضاره على وجه السرعة. مكتوب في أول صفحة بالأهرام.

ـ يا خبر أسود يا نادر.

ـ انتبه لنفسك يا حسن؛ لأنه حتماً سيتم استجوابك وتفتيش التوكيل. خلِّ أوراقك سليمة من كل ناحية، يعني حتى أوراق الشركة العادية وإيصالات المياه والكهرباء، وصر على أنه لا علاقة لك بالموضوع من قريب ولا من بعيد، ولو لزمك محامٍ انتظر، عندي محامٍ شاطر جداً ومتخصص في أية قضايا من هذا النوع.

شكرته من كل قلبي ووضعت السماعة، وارتميت على أقرب كرسي مني وقد سابت مفاصلي كلها.

لا أدري، كيف قمت بعد ذلك، فأتممت حلاقة ذقني، وارتديت ملابسي على عجل، وخرجت مسرعاً دون أن أفطر ولا أشرب أي شيء بعد أن أطفأت موقد الغاز على إبريق الشاي الذي كنت أعده

لأشربه مع طعام الإفطار. اشتريت الجريدة في الطريق كعادتي، ولم أصبر لأصل المحل وأقرأها فيه كعادتي، بل رحت أفتش متلهفاً حتى عثرت على الخبر في أسفل الصفحة الأولى، فوقفت لأقرأ العنوان: القبض على شبكة دولية لتهريب الآثار،وتحت هذا العنوان كتب:

تم القبض على أعضاء شبكة دولية لتهريب الآثار المصرية القديمة، وتضم شبكة مصريين وأجانب من جنسيات أوروبية مختلفة، وقد تمت مصادرة آلاف القطع التي كانت معدة للتهريب إلى سويسرا، على أساس أنها قطع فرعونية مقلدة، وكان الجناة يقومون بطلاء القطع الأصلي للتمويه وكأنها مستنسخات مقلدة، ولقد أرشد بعض المتهمين الذين تم القبض عليهم أمس عن مخازن للشبكة في القاهرة والإسكندرية والبدرشين، كما يرجح أن الشبكة يرأسها رجل أعمال معروف وصاحب توكيل ساعات شهير في حدائق القبة، (البقية صفحة ١٤).

ـ يا خبر أسود. هتفت لنفسي وأنا أواصل سيري باتجاه التوكيل، وبينما كنت على وشك الدخول من الباب، لا أدري من أين خرج عبد الغفار الخفير؛ إذ وجدته أمامي فجأة يقول:

ـ صباح الخير يا أستاذ حسن.

رددت السلام بتلقائية ودون مبالاة وأنا أكاد لا أرى شيئاً أمامي.

ـ الحمد لله أني لقيتك، لأني رحت إمبارح وسألت عنك في التوكيل آخر النهار، لكن يظهر أنك روّحت بدري، عموماً عرفت أوصل للولية الغنامة، وقلت لها الأستاذ حسن شريكك في الخرفان صاحب دكان السواعي، عاوزك تمري عليه في أسرع وقت لازم.. لازم.

ـ هه. وهي جاوبتك بأي حاجة؟ قلت.

ـ آه. قالت إنها بطلت ترعى لك؛ لأن حساباتك غير حساباتها بالمرة، وهي من ناحية وأنت من ناحية، وكل حي يروح لطريقه.

لم أرد، ويبدو أن هذا الصباح، كان صباح الصدمات المستحيلة بالنسبة إليَّ، وتابع الرجل:

ـ قالت إنه حداك ألفين وتسعمائة وخمسة وأربعين جنيهاً قبيل غنماتك عندها، وهي صفت الشراكة. وكل واحد يتيسر في حاله.

ثم إنه تركني وانصرف؛ لأبقى وحيداً مع صباح الصدمات المستحيلة الذي أصبحته وأنا أحلق ذقني في بدايته.

لم أدخل التوكيل، فقد كان رعب هائل يداخلني، ولم تقو قدماي على الولوج بداخله، فقفلت راجعاً إلى الطرق، رحت أمشي على غير هدى وأسير في شوارع وحارات، وربما لم أسر فيها من قبل أبداً. كان خوف طاغ يتملكني وشعرت وكأنني طفل وليد قطعوا حبله السري للتو، بينما رحت أتخبط في زحام الناس، وامرق من بين السيارات المسرعة في الشوارع، وكان إحساس عبثية العالم والأشياء يتصاعد ويجتاحني شيئاً فشيئاً، وكنت أردد لنفسي طوال الوقت، هذا العالم لا يمكن فهمه أبداً، ومستحيل مَنطَقَتِه على الإطلاق.

لا أدري كم من الوقت ظللت سائراً، ساعة. ساعتين. ثلاثة. كنت أسير أحدق في الوجوه التي تعبرني بعينين زائغتين، ويبدو أن منظري كان غريباً مثيراً للانتباه، فقد استوقفني أحدهم، وسألني:

مالك، هل تبحث عن شيء؟ لكني لم أعره اهتماماً ولم أرد عليه، فلم أكن مبالياً بالناس أو بأي شيء حولي، بزحام البشر وفوضى الطريق، وعندما تعبت ساقاي في النهاية ولم تعودا قادرتين على مواصلة السير، ألقيت بجسدي على أول مقعد صادفني، من مقاعد محطة الأتوبيس وركنت رأسي على صدري ونمت.

أفقت بعد فترة مذعوراً، فلقد راودني الحلم الغريب، الذي جاءني ذات مرة وأنا في شقتي بعد أن شربت القهوة عند الحاجة؛ إذ رأيت بينما أنا نائم رجلي التوكيل شريكي، خالد يحمل زمارة طويلة كالتي كنت أراها في المولد وأنا صغير، وإبراهيم يعلق على صدره طبلة ضخمة، يدق عليها بعصا غليظة، وما إن شرعا في الطبل والزمر، إلا وبدأت في الرقص وأنا أرتدي ملابس المهرجين الفاقعة، بينما قطيع من الأغنام حولي يتقافز ويتناطح هنا وهناك ويثغو بصوت عال، وفجأة نظرت إلى عيون الخرفان حولي، فإذا كلها تضع عدسات زرقاء كالتي أضعها، أما فراؤها فقد تحول إلى اللون الأصفر الفاقع. اللون ذاته الذي صبغت به شعري، ثم إنني أخذت

في خلع ملابسي قطعة قطعة مثلما كان في الحلم الأول تماماً.

بقيت وقتاً أحدق في لا شيء أمامي وأنا أتذكر مشاهد الحلم الفظيع انتبهت على صوت رجل عجوز جاء ليجلس إلى جواري وهو يسألني:

ـ كم الساعة الآن؟

رفعت يدي بتثاقل، ونظرت إلى عقارب ساعتي بأوتوماتيكية متكاسلة. كانت ساعة أبي القديمة التي أفضلها ولا أخلعها من معصمي أبداً، حدقت فيها وأنا أقرأ الوقت وكأنني أراها لأول مرة رددت على الرجل:

ـ تسعة إلا ربع.

رد العجوز بدوره:

ـ ياه.. الزمن جري وسرقني.. كان ظني أنها ثمانية أو ثمانية وربع، لأني كنت ناوي أوصل لحد محطة مصر وأقابل واحد بلدياتي وأشيع معاه فلوس لجماعتنا في البلد.

ـ آه. قلت دون أدنى اهتمام.

ـ لكن ربما الأتوبيس يتأخر. والقطار زمانه راح.

ـ آه.

ـ بكرة لو كان لي عمر، أروح وأبدر بعض الشيء. يوم من يوم قريب.

ثم تركني وقام، وأنا أفكر فيما قاله والقطار الذي فاته وقطار زماني أنا، الذي مر ومر، وتركني جالساً وحيداً هنا على هذه المحطة، أنتظر قطاراً وهمياً آخر قد يأتي وقد لا يأتي أبداً.

تمت

الكاتبة في سطور

سلوى أحمد بكر.

روائية وناقدة مصرية.

حاصلة على ليسانس النقد المسرحي.

تعمل أستاذاً زائرًا بالجامعة الأمريكية بالقاهرة.

صدر لها نحو ١٨ كتاب بين رواية ومجموعة قصصية.

فازت بجائزة دويتشه فيله للآداب الألمانية عام ٢٠٠٣

فازت بجائزة الدولة التقديرية عام ٢٠٢١ في مجال الرواية.

الفؤاد
للنشر والتوزيع